يتناول هذا الفصل بعض المعالم الأساسية التى يمكن أن يتخذها المعلم خلفية ثقافية أساسية له ، وهو يتصدى للتدريس . ولما كانت الغاية من التربية الإسلامية "هى إيجاد الإنسان العابد لله عز وجل الصالح للإنسانية جمعاء ، وذلك من خلال مكونات واضحة وعملية تربوية سليمة تفرز لنا ذلك الإنسان القرآنى قولا وعملا فإنه من المفيد عرض ما يتصل بأسسها وخصائصها ثم ما يتصل بذلك . وفيما يلى توضيح لذلك.

أولا : مصادر التربية الإسلامية

هناك مصادر عديدة للتربية الإسلامية . منها ما هو ثابت وأساسى لا يتغير بتغير الزمان والمكان، ومنها ما هو متغير بتغير الزمان والمكان، ويمكن عرض هذه المصادر باختصار فيما يلى :

١ - القرآن الكريم: وهو المصدر الأساسى الثابت لتربية المسلم، من حيث إنه يتضمن القواعد الأصلية للسلوك الإنسانى، كما يتضمن القيم والآداب والمعايير الاجتماعية للمسلم . وإذا كان الله - سبحانه - قد مدح رسوله الكريم بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن، بل كان قرآنا يمشى على الأرض ، بمعنى أنه (ﷺ) كان النموذج الإنسانى ككتاب الله.

قال (ﷺ) : إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا وسنة خالية ، ومثلا مضروبا. فيه نبؤكم . وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم لا يخلقه طول الرد ولا تنقضى عجائبه . هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج (ظفر وفاز) ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أوجر ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله.

والقرآن الكريم منه المكى ومنه المدنى . فالمكى ما نزل فى مكة ونواحيها قبل الهجرة

طول مدة مقامه (ﷺ) فى مكة ، وهى اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما . من ١٧ رمضان سنه ٤١ إلى أول ربيع الأول سنه ٥٤ من ميلاده (ﷺ).

والمدنى ما نزل بعد الهجرة إلى المدينة المنورة. وقد نزل على سبعة أحرف ، والمراد بها سبعة أوجه من المعانى المتفقة بالألفاظ المختلفة ، نحو : أقبل ، وهلم ، وتعالى وعجل وأسرع . ولعل من أبرز المكى مسألة الألوهية ، ومن أبرز ما نزل بالمدينة مسألة التشريع. والقرآن الكريم هو كلام الله الموحى إلى النبى (ﷺ) الذى عبر عن نفسه بالنور فى قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. (المائدة: ١٥،١٤) ويعنى هذا أن جوانب الهداية من القرآن الكريم هى محور التدريس والإطار الذى يدور حوله المدرس من خلال ما يستشف منه.

٢ - السنة : هى ما صدر عن رسول الله (ﷺ) من قول ، أو فعل أو تقرير . ولم يختلف الفقهاء فى كون السنة المصدر الثانى للتشريع بجانب القرآن الكريم ، وأنه يجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها ، متى صحت وثبتت عن رسول الله (ﷺ) . مثل : عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) " من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له " قال أبو سعيد روى الحديث فذكر رسول الله (ﷺ) أصنافا من المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل.

وقالوا : الاعتصام بالسنة نجاة . وكتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللحن أى اللغة ، وقال ، إن أناسا يجادلونكم - يعنى بالقرآن - فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله . وقال الشافعى : ليس فى سنة رسول الله (ﷺ) إلا اتباعها.

إذا كانت هناك بعض الخصوصيات للرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره بشرا كالأكل ، والشرب ، والنوم ، والمشى ، والقيام فإن ذلك لا يمنع من التأدب بآدابه باعتبار ما يصدر عنه إنما هو من تأديب ربه له . " أدبنى ربى فأحسن تأديبى " . ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ (الأحزاب : ٢١) وهذان المصدران أساسان فى التربية الإسلامية فيما فيه نص . أما المصادر التالية فهى مصادر متغيرة.

٣ - الإجماع : إذا كان الإجماع يقصد به " اتفاق جميع المجتهدين من أمة محمد (ﷺ) فى عصر من العصور على حكم شرعى " - فإنه يمكن اعتبار اتفاق جماعة المسلمين على أمر يهتم بتربية المسلم ، ويعطيه صفة التميز مصدرا من مصادر التربية الإسلامية ، إلا إذا كان فيه مخالفة لشريعة الله.

٤ - العرف : وهو ما استقرت النفوس عليه ، بشهادة العقول ، وتلقته الطبائع بالقبول ، وهو ما اعتاده الناس من معاملات ، واستقامت عليه أمورهم . وقد دل عليه قوله (ﷺ) : "ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن " و لأن فى مخالفة العرف الذى يعده الناس حسنا حرجا وضيقا . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج : ٧٨) وليس من العرف ما اعتاده بعض الناس من شرب الخمر ، أو لعب الميسر أو رقص الرجال مع النساء فى الأفراح ، أو كشف العورة فإن ذلك عرف فاسد ، ومن هنا فإن الشرط فى العرف ألا يخالف دليلا شرعيا ، ولا قاعدة شرعية ، ولا حكما ثابتا لا يختلف باختلاف العصور والأحوال. ومعنى هذا أن ما تعارف عليه الناس من آداب وأخلاق وقيم يعد مصدرا من مصادر التربية ويعول عليه فى تنشئة النشء بشرط ألا يعارض مبدءا أو أصلا من أصول الشريعة.

٥ - أراء الصالحين والعلماء ، والمشتغلين بهذا الفن ممن يوثق فيهم ، ويؤمن جانبهم ، ويطمئن إلى رأيهم فى تربية أولاد المسلمين . ومعروف أن هذه الآراء لا تأتى عفوا ، وإنما لابد لها من رصيد من العلم و الخبرة ، إلى جانب الاستئناس بما فى كتاب الله ، وسنة رسوله (ﷺ) . انطلاقا من الحديث الشريف " من سن سنة حسنة ، فله خيرها وخير من عمل بها إلى يوم القيامة ...الخ ".

وقد حفظ لنا التاريخ الإسلامى وجهة نظر الكثيرين من المسلمين فى مجال التربية مثل : على بن أبى طالب ، عمر بن الخطاب ، وغيرهم ممن أعطاهم الله شفافية فى النفس ، وقدرة على سبر النفس الإنسانية ، وحكمة فى التعامل مع الناس ، كما اهتمت الدراسات التربوية الحديثة باستخراج أهم الجوانب التربوية من التراث الإسلامى ، وما خلفه الأوائل من علماء المسلمين أمثال : العبدرى ، الغزالى والقابسى ، والإمام الشاطبى وابن سحنون ...الخ .

ثانيا : أسس التربية الإسلامية :

يقصد بالأساس ما لا بد منه فى أى مجال من قول ، أو عمل ، بحيث يترتب على إهماله خلل أو نقص الكمال فيما هو أساس فيه ، أو هو كل أمر يؤصل للبحث أو المناظرة فى إحدى المسائل - يجب أن يعد أساسا لها.

والإسلام دين سماوى، وأخر الأديان على الأرض، نزل أساسا لهداية الإنسان وتنظيم علاقاته المختلفة بكل جوانب الحياة ، وليس من هدفه بيان كيفية زراعة أرض ما، أو بناء عمارة ، أو تصميم سيارة ، ولكنه أرشده إلى الأساس لكل ذلك وهو العلم.

ومعنى ذلك أن كل ما جاء به هذا الدين خاصا بالإنسان يعد أساسا لحياته ، بحيث يترتب على السلوك الموافق لهذا الدين نجاح له ، واطمئنان لسعيه ، كما يترتب على تجنب السلوك المرضى لهذا الدين خلل فى حياة الإنسان، ومن هنا فإن الأسس التربوية فى الإسلام كثيرة ومتشعبة بتشعب الحياة نفسها. وهى مع كثرتها وتشعبها مترابطة متكاملة لا انفصام بينها ولا تعارض بين جوانبها، بل إن هذه الكثرة وذاك التشعب يؤدى إلى تمام التكامل.

وتبدو فاعلية هذه الأسس، وقوتها - على سبيل المثال - فيما لو تراخى المدين عن أداء ما عليه لغيره فإنه يترتب عليه آثار عديدة . منها: تراجع القادر عن مشاركة غير القادر وحقد الأخير على الأول وتجمد رأس المال، وزيادة عدم التماسك الاجتماعى ، وشيوع الأنانية ...الخ.

ويبدو أن كل شئ فى التشريع الإسلامى معلل بالخير للناس ، والحرص على مصالحهم. وتلك حجة الله فى تشريعه ، ومرفأ الأمان لعبادة ، وتلك رحمته بين خلقه ، وعدم تحقيق ذلك يترتب عليه آثار شتى على الأنشطة الإنسانية.

ونظرا لتعدد أسس التربية فى الإسلام فإنه يمكن ذكر أهمها فيما يلى:

أولا : الأسس التشريعية للتربية الإسلامية :

التربية الإسلامية ليست نابعة من فراغ ، والمسلمون حين يمارسون حياتهم اليومية من مأكل ، ومشرب ، وملبس ، وتعامل مع الآخرين ، لا يأتون بكل ذلك وغيره مما يتصل بأنشطة حياتهم من عند أنفسهم . وإنما يستمدون ذلك من شريعتهم ، حيث تنظم علاقاتهم وتضع لكل أمر حكمه الشرعى المناسب له ، والوارد العمل به.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تتضمن أحكاما اعتقادية ، وهى المتعلقة بذات الله وصفاته ، وبالإيمان برسله واليوم الآخر وغيره ، وأحكاما تهذيبيه ، وهى التى تتعلق بالعبادات والمعاملات مثل الصلاة ، والبيع فإن هذه الجوانب كلها تسهم فى تربية المسلم، ويمكن أن نستشف منها بعض الأسس التالية التى تفيد فى عملية التربية.

١ - التزام التربية بالشريعة الإسلامية ، ونصوصها الثابتة فى كل موقف من مواقف الحياة. فمن ترأس قوما ، وساس أمورهم بالشورى والعدل والمساواة ، وغير ذلك مما يعين أمر الجماعة فقد تربى تربية إسلامية . ومن تناول طعامه بيمينه ، وأكل مما يليه فقد تربى تربية إسلامية. ومن قابل أخا بوجه طلق ، ومن عامل جارة بالمودة والاحترام فقد تربى تربية إسلامية : وهكذا فى كل أمور الحياة . وهذا الالتزام ليس قيدا على المسلم ؛ وإنما هو لخلق مجتمع مثالى ، ينعم فيه الجميع بجمال النظام ، وسيادة الاستقرار ، وضمان الحقوق ، والشعور بالسعادة . ومعنى ذلك أن نصوص الشريعة الإسلامية ليست نصوصا جامدة مكانها بطون الكتب ، أو أدمغة الفقهاء والمتخصصين ، وإنما مكانها حياة الناس ومعاملاتهم . ولا تربية يعتد بها ، إذا لم يطابق السلوك أصول الشريعة الإسلامية.

٢ - المرونة فى تطبيق ما ليس له نص شرعى ، انطلاقا مما روى عن أبى ثعلبة ، أن رسول الله (ﷺ) قال : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدد حدودا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها ؛ ليسلك كل مسلم طريقه على حسب هذا المنهاج المبين . فهو أمين على ضميره فيما يختاره من أحكام الدين التى شرعها الكتاب إجمالا ، ولم يذكر تفصيلات الأمثلة عليها.

وهذه المرونة أساسها التيسير على الناس ، وعدم التضييق عليهم، فى معاملاتهم الدينية والدنيوية . ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ (المائـدة : ٦) ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة :٢٨٦) . ومعنى هذا أن الشريعة الإسلامية لا تمنع من إحداث تغيير فى بعض صيغ الأشكال والأوضاع تبعا لما يعترى الحياة البشرية المتجددة دائما من تطورات ، إذا ما حوفظ على الجوهر الثابت لهذا الدين وهو الكتاب والسنة ، وعرض الشئ على قواعد التشريع ، وصحة الأحكام ودلائلها ، والتدقيق فى مدى صلاحية هذا الشئ لجماعة المسلمين.

٣ - التزام النفع للفرد والجماعة . فإذا كان الإسلام قد أكد على حفظ الأرض والعرض والنفس والمال ، والدين فإن أى مساس بها أو واحدة منها يخرج الإنسان من دائرة التربية الإسلامية . فمن شرب خمرا ، أو كان عميلا على بلده ، أو استعمل ماله فى الربا أو حصل به ما ليس بحقه فقد ألحق الضرر بنفسه ، وببلده وبغيره ، ويعد بهذا

السلوك خارجا عن التربية الإسلامية ، كما يعد مخالفا للشريعة التى التزم بها.

٤ - فتح باب الاجتهاد . وهو اتفاق المجتهدين من أمة محمد (ﷺ) بعد وفاته على حكم شرعى . وقد علم القرآن الكريم المسلمين الاجتهاد و الاستنباط ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ ﴾ (النساء : ٨٣) . والاجتهاد بهذا المعنى أصل من أصول التشريع الإسلامى ، ودعوة إلى الفكر والتأمل لمن كان أهلا لذلك . فمن كان لديه سعة فى العلم وغزارة فى المادة ، ومعرفة تامة بأنواع الأدلة الشرعية ؛ بحيث ييسر على الناس ولا يضيق عليهم - فليعرض نتاج فكره واجتهاده على المسلمين ، وأجره على الله.

ثانيا : الأسس الفكرية للتربية الإسلامية :

التفكير عمل عقلى ونشاط عام ؛ يشمل التصور والتذكر والتخيل والحكم والتأمل. والتفكير فى الإسلام ضرورة دينية وفريضة إسلامية ، فضلا عن أنه خاصية إنسانية . وهو يستهدف الوقوف على ما فى الكون من آيات تربط الإنسان بربه ، وتسمو به إلى درجات عالية. وهذا التفكير يستند إلى مجموعة من الأسس أبرزها ما يلى :

١ - إن البلوغ والعقل شرطان أساسيان لمطالبة المسلم بالتزام الإسلام و آدابه ، وعقائده وليس معنى ذلك التخلى عن المسلم قبل ذلك ، وترك الحبل على الغارب له ، بل طالب الإسلام الأبوين والمجتمع الإسلامى أن يهيئا الطفل لمرحلة التكليف الشرعى ، حتى لا تكون هناك طفرة فى حياته ، بحيث تعد امتدادا لما سبق . وهذا الامتداد قائم على الفهم والتفكير السليم ، على أن يبدو ذلك فى عاداته وتقاليده وآدابه ، لاعن تقليد، أو محاكاة ، وإنما عن فكر . وإعمال عقل.

وإذا كانت التربية تستهدف تنمية الإنسان من جميع نواحيه — فإن هذه التنمية لا يمكن أن تحقق الهدف منها إلا إذا اتخذت العقل رائدا لها ، والتفكير أساسا تستند إليه. وإذا كان الإنسان هو موضوع التربية ، فإن قيمة المصدر التربوى يمكن أن تقاس بمدى احترامه للعقل حيث إنه هو الأداة التى بها يفهم ، ويتأمل ، ويفكر ، ويتعلم. ومن مزايا القرآن الكريم الكثيرة ، ميزة واضحة ، تلك الميزة هى التنويه بالعقل ، والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعية والتكليف ، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ، ولا مقتضبة فى سياق الآية بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة . وتتكرر فى كل

معرض من معارض الأمر والنهى ، التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها المفكر إذا أهمله ، وقبل الحجر عليه ، ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها علماء النفس، بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها، وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص ومناسبتها " .

٢ - أن يتخذ المسلم القرآن الكريم بداية ونهاية لتفكيره، حتى يطمئن إلى أن لتفكيره إطارا محددا يحميه من الانزلاق إلى ما فيه مظنة الخطر، ويحفظه من التبلد والجمود . يقول (ﷺ) فيما رواه الشيخان : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه" فتعلم القرآن: حفظا وفهما وتدبرا لمعانيه ومدارسته، والوقوف على نواحى الإعجاز فيه هو السبيل لحسن الاستفادة منه تربويا. ومعنى ذلك أن القرآن الكريم ليس مسألة حفظ فقط، وإنما المسألة فيه أنه أساس لكل إيمان وأخلاق، وجوهر كل علم وعمل، وفوق هذا كله أنه مصدر إثارة للعقل أن ينشط، وباعث للذهن أن يتأمل : بحيث يعرف الإنسان العناصر الكلية لهذا الوجود وهي: الإنسان، والحياة، والكون . وتلك ينابيع المعرفة كلها.

إن الإسلام اعتبر التفكير من سمات العقلاء، وأبرز القرآن بشكل واضح أن الكون بكل ما فيه من أرض وسماء، وما فيهما، وما بينهما من إنسان وحيوان ونبات وجماد لم يخلق ليستفيد منه الإنسان، ثم يولى ظهره إليه بعد ذلك، وإنما في مقابل هذه الإفادة وهذا التسخير عليه أن يتأمل ويتفكر، حتى يقدم لخالق هذا الكون الإقرار بعظمة الألوهية ووحدانيتها المبني على الإيمان واليقين ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣).

والتفكير في الإسلام ليس مقصورا على المظاهر المادية الكونية، وإنما يمتد التفكير أيضاً إلى القيم التي أرساها هذا الدين الحنيف، حيث تشيع جو الراحة والطمأنينة لدى الفرد ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).

ومعنى هذا أن ذوى الألباب عليهم فريضة التفكير، وأن يفهموا الدين على أنه ليس ركونا إلى غيبيات غامضة، أو انسياقا وراء مشاعر مبهمة، وكأن الإيمان فكر قاعد والإلحاد فكر متحرك، أو أن الإنسان المؤمن يستكين للمجهول، أما الآخرون فسيكتشفون الأسرار، ويبحثون عن المعرفة.

إن الحياة العصرية لا تعرف الهوادة . والأمة التي لا تقدر إعداد العقول حق قدرها مقضي عليها لا محالة، ولن تجديها البطولة مهما استطالت، ولا الدماثة الاجتماعية مهما ارتقت، ولا حضور البديهة مهما توقدت، ولا انتصارات البر والبحر مهما تكاثرت فليس بنافعها ذلك كله في رد عادية القضاء، ذلك لأن العاقل يقيس مالم ير من الدنيا بما قد رأى وسمع ، ويضيف ما لم يسمع منها إلى ما قد سمع، وما لم يصيب منها إلى ما قد أصاب وما بقى من عمره بما فنى، وما لم ينل منها بما قد أوتي.

٣ - أن المسئولية في الإسلام، مسئولية شخصية، وليس لأحد مهما كان، أن يتحمل تبعة غيره ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ (الإسراء: ١٥) ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (الطور: ٢١) ومن هنا فإن التفكير فيما يقدم عليه المسلم أمر ضرورى تمليه المسئولية الفردية، إذ أن الإنسان في الإسلام مخلوق عاقل، ذو ضمير، مسئول يحاسب على عمله، ولا تلحق به جريرة قبل بلوغه وبعد انقضاء حياته ، وهذا التفكير المسئول لابد أن يأخذ الطابع الإسلامى، ويدور في فلك الشريعة.

٤ - أن الإسلام تكفل للمؤمن باستقرار اليقين، وبالطمأنينة الروحية في مواجهة الأطوار والتقلبات، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتفكير الموجه من قبل المولى عز وجل ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠) ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١) وهذا وذاك يدخل في إطار الممكن من التفكير والتخلص من الطاقة الزائدة في ممارسة التفكير. فلا عبادة كالتفكير.

٥ - أن الإسلام قد ارتفع بضمير الإنسان شأوا بعيدا فى إدراكه للفكرة الإلهية ، والفكرة النبوية أو فكرة الرسالة ، والوحى من الخالق إلى خلائقه العقلاء ، فالله فى الإسلام هو اله الخلق أجمعين ، لا يفضل أحدا منهم على أحد بغير التقوى والصلاح . والنبوة فى الإسلام رسالة هداية وتعليم ، وبلاغ إلى العقل والضمير ، يقنع الناس بالبينات والآيات ، ولا يجعل الإقناع موكولا إلى التهويل بالخوارق والمعجزات . ومعنى هذا أن الإسلام قد أمد الفرد بالحقائق التى قد يصل إليها بعد جهد ومشقة ، لكى يبدأ بعد ذلك مرحلة الإنجاز والإبداع فيما يعود عليه بالنفع . ويعول على من

منح الثقة بالله وبالنفس أن يقدم المزيد ، ويطور نفسه ؛ لإثبات الوجود.

٦ - أن الإسلام ترك للناس حرية التفكير ، ولم يجبرهم على الإيمان به ، بل وضع أمامهم شريعته فى الوجود ، وفى الحياة الإنسانية ، على وجه خاص ، وناشدهم أن يحتكموا - فقط - إلى عقولهم الإنسانية فى الأخذ بها ، أو فى ردها ، ودفعها ، ولكن من غير تحيز فى ذلك ، أو تأثر بالعادة والمألوف ، أو بتوجيه سابق لفكرة معينة ، أو عقيدة خاصة . ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ ﴾ (لقمان : ٢١). ومعنى ذلك أن الإسلام طلب من الإنسان التجديد فى التفكير ، وإعمال العقل أملا فى الإيمان به سبحانه أولا ، وخوفا على مستقبله يوم القيامة ثانيا ، وقرر أن ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩) .

٧ - أن الإسلام اعتبر العبودية الحقيقية إنما هى لله وحده . والإسلام بهذا المبدأ حرر الإنسان من أخيه الإنسان ، بل حرره من كل ما سوى الله ، مهما كان سلطانه وجبروته . ومعلوم أن الإنسان إذا تحرر من الخوف والقهر أصبح الطريق مهيئا ليسهم فى الحياة . ويترك بصماته عليها . فالخوف يقتل الموهبة ، ويشل التفكير ، ويقضى على الإبداع.

وبناء على ذلك فإن من حق كل إنسان أن يفكر ،ويتأمل ، ويلاحظ ، ويمعن النظر بل اعتبر النظر أمرا واجبا ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس : ١٠١).

ومعنى ذلك أنه ليس فى الإسلام سلطان لمعبد ، أو كهانة على العباد ، لأن التوجه الحقيقى لا يكون إلا لله . ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (البقرة : ١١٥).

وإذا كان من حق كل مسلم أن يفكر - والتفكير يصيب ويخطئ - فإن الإسلام لا يلومه إذا أخطأ ، بل لا يحرم المجتهد من المثوبة والأجر . ففى الحديث " المجتهد إذا أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران " متفق عليه.

٨ – إن التفكير الفردى والجماعى كلاهما مطلوب فى موقعه . فالتفكير الفردى فى مسائل الحلال و الحرام ـ مثلا ـ مرده إلى الشخص نفسه ، وهو الذى يقرر ـ لا سواه ـ حل أو حرمة ما يقدم عليه " استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك". والتفكير الجماعى مطلوب فى موقعه مثل تقرير حكم شرعى يتصل بمصلحة الجماعة ، كأن يتصل هذا

الحكم بالمعاملات المالية ، أو الجهاد فى سبيل الله ، أو غير ذلك من المواقف الأخرى. والتفكير فى الحالين مرتبط بأصول الدين ، ومعالم الشريعة؛ إذ ليس بينهما تعارض، ولكن كل واحد منهما رصيد للآخر يقويه ويدعمه، ويكمله. والهدف من الاثنين معا قوة الجماعة ، قوة بعيدة عن الارتجال والمصادفة.

٩ - أن يستند التفكير إلى الموضوعية. وهو التفكير الذى يخلو من الذاتية، ولا يتأثر بالأهواء الشخصية، بل يتحرى الدقة والحقيقة. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات : ٦) أو أن يرد إلى أصحاب الرأى والخبرة ، ومن لهم القدرة على الإسهام بالرأي ، وإصدار القرار ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء : ٥٩) . وفى هذا حماية للفرد والجماعة من الشطط فى التفكير والبعد عن مزالق الشر.

١٠ - أن تستند التربية الاسلامية إلى العلم ؛ إذ أنه يقع فى المرتبة الأولى ، من حيث أنه أساس تقدم الفرد والمجتمع ، وأساس تدرج الفرد فى مدارج التربية الإسلامية أداء وسلوكا ، وصقلا للعقل ، وتهذيبا للوجدانات " روى مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله (ﷺ) قال: "من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة". وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله (ﷺ) :" من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين" (رواه البخارى ومسلم).

وإذا كان إسلام المسلم لا يصح إلا بالإقرار بوحدانية الله. وهذه الوحدانية لا يمكن التسليم بها إلا بالمعرفة الحقة لجلال الله وعظمته، والعلم ببعض أسرار كونه - وهذا الإقرار قمة الحقيقة المطلقة - فإن العلم بما هو دون ذلك، والمحسوسات منه أمر وارد، بل أمر حتمى ؛ لكى يعمق المسلم إيمانه . ويزيد رصيده عند الله بالعلم والاقتناع.

والحق يقال: إن الإسلام لم يجعل العلم مقصودا به فقط العلوم الدينية ، أو الشرعية بل إن ذلك فرع من فروع العلم، ولا أدل على ذلك من أن الله سبحانه ذكر العلم فى القرآن بأل الاستغراقية، ليشمل كل علم وصل إليه العقل البشرى و سواء أكان هذا العقل لمسلم أم لكافر ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥) بل إن الآية سيقت بصيغة تستحث الهمم، وتستثير العقول، وتدعو إلى توليد المعرفة، واشتقاقها، بحيث لا

يصل إلى الدرجة التى يقول فيها: "لم يترك لنا الأولون شيئا نقوله"، وإنما مهما وصل إليه الإنسان من المعرفة فهو قليل.

وإذا كانت العلوم الشرعية هى وسيلة بناء الإنسان ، فإن العلوم الطبيعية هى وسيلة بناء البيئة التى يعيش فيها الإنسان والحفاظ عليها فإن كليهما متمم للآخر ، يتكامل فيها ويتسق بينهما ، وينسجم وجوده ويتأكد دوره، ويحقق وظيفته بهما فى هذا الكون.

يقول معاذ بن جبل فى التعليم والتعلم: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواما ، يجعلهم فى الخير قادة سادة هداة ، يقتدى بهم ، أدلة فى الخير. تقتفى آثارهم وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى صحبتهم.

ومن كل ما سبق يتضح أن تلك الأسس وغيرها مما يتصل بالفكر فى الإسلام تستهدف مصلحة الفرد والجماعة، وتطورهما، وتقدمهما، وذلك بإعمال العقل، وعدم تعطيله، لأن فى إعماله تطويرا وتجديدا ، وفى تعطيله تخلفا وجمودا .

ويبدو من تلك الأسس أنها بقدر ما يظهر أثرها فى سلوكيات الفرد والجماعة بقدر ما يقال أنها أسس إسلامية ، وبقدر ما تبدو محفوظة فى الأذهان لا علاقة لها بالواقع بقدر ما يقال عنها أنها حبر على ورق.

والأمر الذى لا محل للخلاف فيه أن الإنسان قديما وحديثا مطالب بفهم القرآن والسنة، ذلك لأن المسلم مأمور فى القرآن بالتفكير والتأمل والتدبير والاستقلال بذلك عن الآباء والأجداد ، وأخبار الزمن القديم ، وأئمة الدين فيه ، إذ ليس من المعقول أن يفكر الإنسان على نسق واحد فى جميع العصور ؛ إذ التفكير الصحيح مرآة كل عصر . وبدون تعصير التفكير يظل الوضع على ما هو عليه.

ثالثا : الأسس التعبدية للتربية الإسلامية:

تجدر الإشارة فى أن عبادة الفرد لربه بمعناها العام ويعنى بها كل عمل طيب صغر أم كبر ابتغى العبد به وجه الله يقصد بها منفعة الفرد ، ورفع درجة القرب له عند خالقه الأعلى . وهى فى مضمونها العام تطهير للعبد ، والتسامى به إلى مرتبة الملائكة المقربين . وهذه الأمور التعبدية لها مجموعة من الأسس أهمها ما يلى :

١ – أن يتوجه العبد بعمله إلى الله وحده . بمعنى أن أى عمل يقوم به العبد يبتغى به رضا الله – إنما يحسب له فى الأمور التعبدية . وهذا المعنى لصالح العبد . لأنه إذا قدم عملا ما لإنسان أو حيوان أو نبات أو أى شئ فى الكون كله - حبا لله لا طمعا فى رد جميل أو انتظارا لمعروف أو خدمه تقدم إليه عوضا عما فعل - فإن الله - وهو العادل - سيجازيه حسب نيته ، ويضاعف ما قدم فى الدنيا والآخرة . والمسلم إذا اتجه إلى هذا السلوك فإن له ثلاث فوائد . وهى :

الأولى : أنه يحمى المسلم من الحرج إذا قدم له معروفا من نوع ما ، لأن ما قدم إليه خلا من كل منفعة دنيوية كما خلا من الأمل فى انتظار الرد ، وهو بهذا تجاوز مرحلة المصالح المشتركة إلى التسامى بالنفس ، والتعالى بالإنسان ، لأن المن بالمعروف أمر يلحق الإهانة بالفرد ، فضلا عن أنه بعيد عن شرع الله.

الثانية : أن التوجه بالعمل لله وحده يفتح باب التنافس بين العباد للقيام به وحسن الأداء له ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَفِسُونَ ﴾ (المطففين : ٢٦) وهو أمر محبوب للدنيا والآخرة.

الثالثة : أن التوجه بالعمل لله وحده يزيد من تماسك الجماعة ، ويتلاشى أسباب الحقد والحسد ، ويذيب عوامل الاتكال والكسل لأن الأجر من الله مضمون ، وفيه زيادة فى الرصيد الدنيوى والأخروى.

٢ - أن يذعن المسلم لكل ما أمر الله به فإذا كان هناك بعض الأمور التعبدية التى يرى فيها المسلم علة وفائدة - فان هناك من هذه الأمور ما لا سبيل إلى تفسيره ، ولا إلى الوقوف على علته . ويمثل هذا الأمر موقف عمر بن الخطاب حين أقبل على الحجر الأسود، وقبله وقال : والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك . ومعنى هذا قبول كل ما يتصل بالعبادة برضا واقتناع ، والانصياع لأمر الله ؛ انطلاقا من حسن الظن بالله ، وأنه - سبحانه - لا يفعل إلا الخير للإنسان ، ولأن الله - وهو المعبود بحق - قد شرع للناس كيفية عبادته ، وأسلوب التعامل مع جلاله وعظمته . وهذا التسليم المطلق - يبرز مدى إيمان المسلم ، ودرجة قربه من الله ، والإخلاص له والفخر بالانتماء لهذا الدين.

٣ - أن يستمر المسلم على عبادة الله ، والولاء له . ويقصد بذلك ألا تنقطع صلة العبد بربه حتى لا تفوته العناية الإلهية ويحدث خلل فى حياته . وبمقدار البعد عن الله بمقدار

ما يزداد الخلل والتفكك فى حياة الفرد والجماعة . ورحمة الخالق حاضرة فى كل وقت لأن تستوعب كل الذين يلجئون إليه ، ويعودون إلى رحابه.

ومعنى هذا أن استحضار الله مع العبد فى كل وقت يمنعه من ممارسة السلوكيات التى لا يقبلها المربى الأعلى وهو الله ، كما أن وضع الأسس التعبدية نصب عين الفرد تجعله فى حالة امتثال دائم لكل التوجيهات الربانية . والتى تظهر فى شكل سلوكيات وأداءات يقوم بها المسلم تلقائيا ، بدون تحذير أو تنبيه ، أو تفكير فيما يمكن أن يترتب على السلوك الطيب.

ويجب ألا يغيب عن الذهن أن الجانب التعبدى فى التربية ليس معناه الإشارة إلى تعطيل عقل المسلم ، وحجر التفكير عليه ، وإنما يعنى وضع أسلوب القربى والتعبد إلى الله أمام المسلم ، حتى لا يتعب نفسه فيما يصعب الوصول إليه بنفسه . والتسليم المطلق بما يقره الوحى ، هو أعلى درجات الإيمان.

٤ - أن يأخذ جانب اليسر فى العبادة . فلا يشدد المسلم على نفسه ، لأن الإسلام دين يسر وسماحة ولهذا فإن النبى (ﷺ) كان يكره السؤال فى أمور الدين ، والتشريع ، لأنها من علامات الجمود والتزمت ، ولأنها قد تدفع إلى التحريم والتضييق على الناس . لا تشددوا ولكن سددوا ، وقاربوا . إن هذا الدين متين ، فأغلوا فيه برفق ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه . وعنه (ﷺ) أنه قال : "إذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم".

٥ - أن يكون ملما بأمور دينه . وليس المراد منه العلم بالأصول والفروع التى تمكن المسلم من أن يكون فقيها فى دينه ، يفتى الناس فى قضاياهم ومشكلاتهم، ويجيب عن كل تساؤلاتهم؛ وإنما المراد أن تكون عبادة المسلم قائمة على أساس من الفهم الصحيح والاعتدال المطلوب، وفى الوقت نفسه بعيد عن الإفراط والتفريط، والتشدد والجمود. عن سفيان بن عبدالله الثقفى قال: قلت يا رسول الله: قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحد غيرك قال: "قل : آمنت بالله ثم استقم" . (أخرجه أحمد فى مسنده) . فالمطلوب التفقه فى الدين لا الفقه فى الأحكام.

٦ - أن ينأى المسلم بنفسه عن الغفلة . والغفلة هى أن يغلق الإنسان قلبه أمام أى وجه من وجوه الخير – بعلم أو بغير علم – سواء أكان هذا الخير للمرء نفسه ، أم لغيره . ويتمثل ذلك فى تعطيل القلب عن أن يفقه ، والعين أن تبصر ، والأذن أن تسمع.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

ويمكن أن يتفادى المسلم هذه الغفلة بذكر الله . وليس معنى ذكر الله بالنسبة للعبد أن يكتفى فيه باللسان فقط ، بل لا بد له من رصيد من الحب ، قبل أى شئ ، لأن تكرار اسم المحبوب فيه التلذذ بذكر اسمه أولا ، ثم التفانى فيه بعد ذلك ، بطاعته ، واستحضار ذاته فى كل أمر من أمور حياته ، والعمل على إرضائه ، والقرب منه . ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٥).

٧ – أن يدرك المسلم أنه خليفة الله فى الأرض . وهذه الخلافة لا تأتى لمن طلق الدنيا ، وبعد عنها ، وحصر نفسه فى دائرة ضيقة من العبادة ، يكتفى فيها بالقليل منها ، ويظن أنه قد عبد الله ، لأن الخلافة ليست هى مجرد تواجد الفرد فى الدنيا ، ثم يرحل عنها ، وإنما هى خلافة تعمير ، وبناء للنفس والكون معنويا وماديا.

إن على المسلم أن يدرك أنه إذا كانت السيادة والهيمنة لله وحده على هذا الكون فإن الأولى بخليفته أن يحقق لنفسه هذه السيادة – وشتان بين السيادتين – على جزء من هذا الكون ، يقيم فيه شرع الله ، ويقدم النموذج المثالى لخلافة الإنسان فى الأرض بحيث يصبح ميزانا للمفاضلة بين الملكية الحقيقة لله ، والملكية المؤقتة للإنسان.

إن الخلافة الحقيقية لله على الأرض هى التى تجمع بين الحسنين : تعمير النفس بالإيمان بالله الواحد الأحد ، وانسحاب هذا الإيمان على كل ما فى الوجود ، حتى يصبح نقطة التعامل مع أصغر ، وأكبر شئ فى الوجود ، ثم التعمير المادى بشتى مجالاته ، وفى مختلف أوجه النشاط الإنسانى ، ليتحول هذا العمران بعد ذلك لسان تسبيح ، ورمزا للعبادة الفعليه للخالق المعبود ، ودليل على جديه العمل ، وإقامة العمران.

إن لقب الخليفة لله لا يتصف به إلا من كان أهلا للقيام بمسئوليات تلك الخلافة والنهوض بها . و من هنا فإن الخلفاء الحقيقيين قليلون.

٨ – أن يدرك المسلم أنه بالعبادة يستثمر وقته ، و ينمى نفسه ، ويكسب من القيام بها ، وان الله يجازيه على ذلك . ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ (النجم : ٣٩ ، ٤٠) ومعنى هذا أن العبادة ليست مضيعة للوقت ، كما أنها

ليست خسارة عليه من الناحيتين : الدنيوية والأخروية ، إذ أن الله سبحانه قد تكفل بنجاح سعى المؤمن وتحقيق الفلاح له ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون :١، ٢) والفلاح - مدركا أم غير مدرك - مسألة تكفل الله بتحقيقها للعبد، عوضا له عما فاته فى أمر عبادته ، والامتثال لطاعته ، لا يحس بها إلا من أحسن الظن بالله ، وازداد يقينا بأنه هو الرازق المتين.

ويجب أن يدرك المؤمن أن عبادته - مهما كثرت - لا تضمن لصاحبها الجنة خصوصا إذا تعاظم عمل الخير أمام عينيه ، وإنما عليه أن يدرك أن تفضل الله عليه ، هو الذى يتوقف عليه المثوبة والأجر من الله ؛ لأن نعم الله على العبد لا يساويها شكر ، ولا يقف أمامها عبادة مهما كانت ، ولا تقارن بحمد ، مهما كان خالصا.

وإذا وقر فى ذهن المؤمن أن عبادته لله تعود عليه وعلى مجتمعه ، وأدرك أنه المنتفع الوحيد من هذه العبادة - كان ذلك أدعى له أن يجود عبادته ، ويتقن عمله ، ويتخذ كل الأسباب التى تقربه من ربه ، وتيسر له الخلاص من وساوس النفوس ، وهواجسها ، وفى النهاية تجعل الجنة مأواه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (الكهف : ١٠٧، ١٠٨) وظاهر الحال أن عبادة الفرد تعود عليه وحده ، ولكن الناظر إليها بموضوعية ، يرى أن فائدتها تعم الآخرين أيضا.

إن الذين جربوا التعامل مع الله وفهموا المغزى الحقيقى لهذا التعامل ، أحسوا قيمة السعادة بالنعم من الله . وإذا تأخرت هذه السعادة والتوفيق مؤقتا ، فإنما بغرض أن يستشعر المسلم لذة القرب من الله ، فضلا عما فى هذا التأخير من زيادة الأجر ، وحسن المثوبة من المنعم جل وعلا.

٩ – أن يكون هناك مراجعة مستمرة من المسلم لنفسه ، لأن حساب النفس للنفس اصدق وآمن من حساب الغير . وهذه المراجعة تتم وفق أصول ثابتة من القرآن والسنة ، كما تعتمد على جهاز لا يمالئ فى الحق ، ولا يتستر على باطل ألا وهو القلب " يقول عمر بن الخطاب(ﷺ) فى صدد محاسبة النفس : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم "

وهذه المراجعة مؤداها أن المسلم يحاول – قدر إمكانه – أن يكون قريبا من الله ، من حيث القيام بعبادته على الوجه الذى يرضى بها ربه . وقرب العبد من الرب يعطيه قوة

الالتصاق بالناس ، والتعامل معهم على أساس من الحب لله ، كما يعطيه القدرة على فهم الكون والوقوف على أسراره.

إن الإسلام عقيدة إنسانية تربط المسلم بخالقه ، وتبين له أصول الحلال والحرام ثم تدع له الحرية التامة بعد ذلك فى اختيار التفاصيل الموقوتة على حسب الأزمنة ، والمصالح وعلى علاقات الأمم والحكومات ، فى شتى مناحى الحياة السياسة ، والاقتصادية والثقافية ، والعسكرية . والإسلام بهذا الاتجاه قد أعطى للمسلم قوتين :

١ - قوة تعبدية : بينها المشرع الأعلى ؛ لتملأ فراغ النفس ، وتقربها إلى خالقها وتحفظ للنفس توازنها ؛ لتكون منطلقا لحياتها الدنيوية.

٢ - قوة فكرية : تركها لعباده المؤمنين ، ليبدعوا بها حياتهم الدنيوية ، ويعدوا أنفسهم لخلافة الله فى الأرض بالتعمير ، ثم توثيق علاقتهم بمن خلقهم.

ثالثا : خصائص التربية الإسلامية :

التربية الإسلامية متضمنة فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهى ليست موجودة فى آية واحدة ، أو اثنتين ، وليست متضمنة فى سورة أو سورتين ، وإنما هى منتشرة فى آيات وسور كثيرة ، من هنا فإن تحديد خصائص هذه التربية لا يعدو أن يكون محاولة اجتهادية ، وقد تقترب هذه المحاولة من الصواب ، أو تبتعد. والمجتهد إن أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران . ويمكن تحديد هذه الخصائص فيما يلى :

١ - التربية الإسلامية تأخذ بيد المسلم ، وتسمو به إلى مدارج الإنسانية فى معناها الأسمى ، لأن الإسلام أعطى النفس الإنسانية - كما أعطى الجماعة كلها - حياة أفضل ، وغاية أحق بالسعى إليها من غايتها . ليس متاع الحياة الدنيا غاية حياة الإنسان ، لأن متاع الحياة الدنيا مؤقت وزائل ، أما الصالحات والعمل الطيب فهو الباقى ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف : ٤٦).

وليس معنى ذلك أنها تربية تجنح إلى المثالية ، وتلفظ الطبيعة الإنسانية في شكلها العادى وإنما هي هذا وذلك.﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (البقرة : ١٧٨) . فالقصاص في المرتبة الدنيا . وهو مناسب للطبيعة العادية ،

والعفو هو المرتبة السامية، وهو يتناسب مع تسامي الإنسان . وكلا الأمرين وارد ولا اعتراض عليه، إذ ليس المجتمع الإسلامي سوقا للتجارة، يتم الأخذ فيه مقابل العطاء وإنما هو أمة قبلتها الخير والتقوى، كما أن الإسلام رسالة عظيمة لا يقدم عليها إنسان يصدر في إعماله عن بواعث المنفعة والأنانية.

وإذا كان هناك من يتصور أن المثالية لا وجود لها فى عصر الماديات، فإن تصورهم هذا مبنى على أن إعاشتهم في يد البشر وأن أرزاقهم معلقة بعباده. وواقع الأمر أن تصريف شئون العباد لا زالت وستزال بيد من خلقهم (ﷻ). وهذا يعطى للإنسان مساحة واسعة من التسامى إذا رغب في ذلك.

والسمو بالإنسان ليس مقصورا فقط على جانب السلوك، والفعل، وإنما يتعدى ذلك إلى جانب الكلام . فمعظم الناس لا يكفون عن القول: جدا أم هزلا، مقبولا أم غير مقبول . هنا يحدد القرآن أن من صفات عباد الرحمن أنهم ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٢) . لأن ذلك يعطيهم فرصة الإسهام في الحياة. أما من تركوا أنفسهم فى الخوض فيما يفيد ولا يفيد فقد ضيعوا وقتهم وفوتوا على أنفسهم الخير كله" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا، أو ليصمت" ويندرج تحت هذا التسامى، التسامى فى مجال الفكر، فى العلم والفن والأدب مما يضمن استمرار الحضارة الإسلامية، وإضافة الجديد إليها مهما عانى أهلها من ضعف.

٢ - التربية الإسلامية تنزل الناس منازلهم ، وتضع كل فرد فى المستوى المناسب له من الوجهة الاجتماعية ، قياسا على التفاوت فى الثروة والرزق ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾. (النحل : ٧١) .

ولما كان التعليم يمثل المدخل الطبيعى والغالب للتربية فإن الله لم يسو بين من يعلم ومن لا يعلم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر : ٩).

وليس معنى ذلك أن الآية تصنف الناس درجات ، وتجعلهم طبقات ، بل تميز بعضهم عن الآخر ، فى الجانب العلمى . وهى إشارة إلى حمل الناس على التعلم ، فى أى فرع من فروع المعرفة ، وعلى أى مستوى – تمشيا مع أول آية نزلت فى القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (العلق: ١، ٥) مع مراعاة أن مقياس الكرامة عند الله هو التقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ . (الحجرات : ١٣) . وإذا كانت التربية الإسلامية تعتد بهذه الخصوصية فإن ذلك يرجع لسببين :

الأول : توفير جو الاحترام فى الأسرة المسلمة : الصغيرة والكبيرة ، على السواء. والاحترام مطلب فطرى فى الإنسان.

الثانى : إتاحة الفرصة لكل مسلم كى يرتفع بمستواه أيا كان هذا المستوى ، لكى يلحق بغيره ، وممن يظن أنه دونه.

٣ – التربية الإسلامية تربية توازن بين نوازع الروح ، و نوازع الجسد . عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى (ﷺ) يسألون عن عبادته (ﷺ) فلما أخبروا ، كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبى (ﷺ) ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! قال أحدهم : أما أنا أصلى الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله (ﷺ) فقال : " أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى أخشاكم لله ، واتقاكم لله ، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى " كما تقيم توازنا بين الدنيا والآخرة ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ (القصص: ٧٧)

ومعنى هذا أن التربية الإسلامية لا تضخم الجانب التعبدى على حساب الجانب المادى ولا المادى على حساب التعبدى ، بل تطلق جميع طاقاتها الفردية والاجتماعية والروحية والاقتصادية والعلمية ، دون إفراط ، أو تفريط . والجمع بين هذين الجانبين مدعاة لإمتاع النفس الإنسانية ، وإدخال البهجة عليها ؛ لأن الإسلام ليس دين الحرمان ؛ وإنما الاستمتاع الشرعى بنعم الله على عباده.

٤ – التربية الإسلامية تربية تستند إلى عقيدة شاملة ، تضع للناس مقياس الأعمال والأخلاق كما أنها (أى العقيدة) سند للروح تعتمد عليه فى شدائد الحياة، وقسطاس للآداب والعادات ترجع إليه فى قياس الأخلاق والأعمال، فضلا عن أنها تعصم الإنسان من أكبر دواعى المرض النفسانى، وهو باتفاق المذاهب يرجع إلى علة واحدة محيطة بجميع العلل وهى علة الانقسام الداخلى، أو علة التصدع التى توزع النفس شيعا بين النقائض والأضداد، و يفقدها الوسيلة التى ترأب بها صدوعها، وتعيد بها الوئام والألفة بين مقاصدها ونزعاته.

والتربية الإسلامية بهذا المعنى علامة تميز ، ودليل تفرد ، على قوة مرجعيتها ، و أصالة مصدرها ؛ ولهذا السبب فإن العقيدة الإسلامية هى التى منحت الشعوب المؤمنة بها القوة وهى فى دور العزة والبأس ، كما منحتها قوة الصمود وهى فى دور الضعف والجمود . وهى التى نراها اليوم رأى العين فى بعض القيم و العادات والتقاليد، التى تقف بقوة إزاء ما يفعله البعض ، متأثرا بالثقافة الغربية ، ويروج لها هذا البعض فى حياتنا اليومية .

٥ – التربية الإسلامية تربية رفيعة المستوى، بمعنى أنها لا تتعلق بالإنسان فقط من حيث إنه سيد هذا الكون. وإنما تتعلق بالحيوان والنبات والجماد، وهو كل ما فى هذا الكون، لأن الكون - وهو مسخر للإنسان -لم يغفل عنه الإسلام، إذا أشار إلى كيفية التعامل مع ما فيه والمواقف فى هذا الباب كثيرة . منها :

❖ دخلت امرأة النار فى هرة حبستها، لا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض.

❖ إن الله تعالى شكر لرجل رأى فى الفلاة كلبا يلهث من شدة العطش ، فنزل الرجل إلى بئر فملأ خفه ماء ، ثم خرج فسقى الكلب.

❖ ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ليأكل منه طير ، أو إنسان أو بهيمة إلا كان به صدقة.

من جمع دينارا ، أو درهما ، أو تبرا ، أو فضة ، ولا يعده لغريم ، ولا ينفقه فى سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة.

وهذا التعامل الرفيع مع ما فى الكون يدخل فى دائرة العبادة الحقيقية للمسلم ، و التى بدورها تربية وتنمية (فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فقط ، بل يعبد الله ذاكرا داعيا ، وببدنه مصليا صائما مجاهدا ، وبقلبه خاشعا راجيا متوكلا ، وبعقله متأملا متفكرا ، مستعملا جوارحه فى طاعة الله) ، وبعمله مسهما ونافعا له ولمن حوله ، وما حوله . ومعنى ذلك أن التربية الإسلامية تستوعب العالم بمن فيه ، وما فيه حيث حدد نمط التعامل ، وأسلوب المعالجة تحديدا يتناسب مع سيادة الإنسان لهذا الكون.

٦ - التربية الإسلامية تربية معالمها الرئيسية محددة . وهذا التحديد لم يقم به فرد أو أفراد لهم أهداف نفعية يريدون تحقيقها ، أو مصالح ذاتية ، يمكن أن تتحقق من خلالها ، كما لم تقم به فئة من الناس أحست بأنها صفوه مميزة عن غيرها ففرضت عليهم

آدابها ، وسلوكها وإنما الذى حدد سلوكية هذه التربية هو الله ، ورسوله ، وهذا يكسبها قوة الأداء ، وعزة السلوك ، وفخر الممارسة . والقرآن الكريم ملئ بالآداب الاجتماعية ، والممارسات السلوكية ومنها : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ٥٨ ، ٥٩) كما حفلت الأحاديث النبوية الشريفة بالكثير من هذه الآداب. وإذا كان هناك بعض السلوكيات التى لم ينص عليها القرآن الكريم، أو السنة النبوية فإن القواعد العامة التى وردت بهذا الشأن تعد الإطار الإسلامى لكل مستحدث وجديد.

٧ - التربية الإسلامية تربية لها عصمة ثقافية . فقد جاء الإسلام فى أمة بدوية وكانت العلاقة بين قبائلها ، وزعمائها تقوم على الكلمة . فالكرم ، والمروءة ، والنجدة ، ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف، والصدق وغير ذلك من القيم التربوية كانت تمثل صلب القاموس الثقافى لتلك البيئة ، فلما جاء الإسلام استبقى منها ما وافق شرعيته وأصله ، واستبعد منها ما خلفها وأهمله فلا يزال أكرم الناس ، وأشرفهم قدرا فى المجتمع الإسلامى من يقال عنه أنه مسلم صادق الإسلام فى أعماله ومعاملاته ، ولا يزال أهون الناس وأرزلهم قدرا من يقال عنه أنه إنسان (ليس عنده إسلام) كما يجرى ذلك على الألسنة كل يوم وصف أرازل الخلق فى حكم هذا الدين ، وهم على الدوام أرازل الخلق بكل مقياس صالح ، وكل قسطاس قويم.

وقد تراكم الجانب الثقافى بمرور الزمن حتى أصبح رصيدا تربويا إسلاميا يستند إليه كل باحث ، ويرجع إليه كل دارس ، يوجهه ، ويظهر أثره فى سلوكه وأدائه . وهو فى كل الأحوال مفخرة تربوية ، لا وجود له فى عصرنا.

٨ – التربية الإسلامية تربية عالمية بجانب أنها إقليمية . وهذه الخاصية نابعة من طبيعة الإسلام ذاته من حيث إنه رسالة عالمية للناس أجمعين ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح : ٢٨).

وهذه الطبيعة هى التى كفلت للإسلام قوة الإشعاع والانتشار. وليست عالمية التربية الإسلامية نابعة من نظرة ضيقة متعصبة، و إنما لأن الذى رسم حدودها، وبين معالمها هو الله، حيث خاطب النفس البشرية، ووجهها، وأدبها من منطلق علمه تعالى بخباياها، وقدم رسوله (ﷺ) للناس كنموذج مثالى، وقدوة سامية ؛ لما ينبغى أن يكون عليه المرء فى سلوكه، وآدابه .

وإذا كانت النماذج المثالية المادية فى الأعم الأغلب، يصعب الوصول إلى تحقيقها فى عالم الوجود - فإنها أشد صعوبة فى الجانب الإنسانى، لهذا يبقى رسول الله (ﷺ) النموذج العالمى الأمثل، مصدر استلهام، وأسوة فى الاقتداء، يتطلع إليه من تتلاشى فى نفسه عنجهية الجنس، واللون، والإقليم ليكون إنسانا عالميا.

ونظرا لأن التربية الإسلامية تربية عالمية فقد استحقت أمتها وصف الخيرية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) لأن الخيرية هذه لم تأت من فراغ ؛ وإنما أتت لما تملكه هذه الأمة من عناصر العالمية.

٩ – التربية الإسلامية تربية فيها الثواب والعقاب. فوجود الجنة ، والنار والحساب يوم القيامة دليل على أن سلوكيات الناس وتصرفاتهم لا يمكن أن تمر بدون ضابط ، وهذا الضابط فى الأعم الأغلب يحمل الناس لا على عدم الوقوع فى الخطأ ، وإنما لأنه صمام أمان للفرد والمجتمع ، وحماية للكل من الكل .

ورغم ورود عملية الثواب والعقاب فى التربية إلا أن جانب الثواب هو الغالب ، على العقاب لكون العائد منه أى الثواب أكثر وأكبر وذلك قياسا على الآية الكريمة ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأنعام : ١٦٠).

ومعنى هذا أن من كان حريصا على الالتزام فى آدابه وسلوكه ودراسته يضاعف له الجزاء ، ومن قصر فيه يكتفى بالردع المناسب ، والتخويف المعقول ، والتنبيه اللازم لضمان توفير الكرامة للإنسان.

وقد أباح القابسى الضرب للمعلم من مرة إلى ثلاث شريطة ألا يضرب وهو غضبان حتى لا يتحول الضرب انتقاما، لا أداة للتربية ، وشريطة أن يسبقه محاولات من التأنيب واللوم والتقريع الإيجابى البعيد عن الكلام الفاحش والشتائم .

١٠ – التربية الإسلامية تربية صادرة عن حب الله ولرسوله ، واقتناع بما فى رسالة الإسلام فمن بدأ عمله باسم الله، ثم تناوله بيمينه، واستحضر ذات الله فيما يقول، وفيما يفعل مقتنعا بأن ذلك كله مردود إلى الله ورسوله، ثم هو يصدر ذلك عن حب واقتناع لا عن تقليد، أو مجاراة للغير - حينئذ يمكن القول أن تربيته إسلامية. والتربية الإسلامية بهذه الخصوصية – هى التى مكنت محمدا (ﷺ) أن يملك قومه، لا أن يملك قلوب فئة من المحبين المخلصين فحسب، بل أن يملك حياة مجتمع أصبح هو قاضيه، وقائده، وهو كذلك معلمه وهاديه، كما مكنت المسلمين من بعده - الذين انتشروا خارج الجزيرة العربية أن يكونوا هداة بأدبهم، ورسلا بسلوكهم، لأن ما كان صادرا عنهم كان صادرا عن حب واقتناع. والحب هو بداية الاقتداء بل التفانى فى المحبوب، والعشق فى طاعته. إن المحب لمن يحب مطيع .

١١ – التربية الإسلامية تربية تختص بأنها تنشئ لدى أبنائها شعورا بقمتها الفذة ، وإحساسا عميقا بأنها أفضل مما عداها " لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ؛ حتى يأتى أمر الله " فإذا فقدت الأمة ثقتها فى نفسها ، وضعف اعتدادها بشخصيتها كان ذلك بداية الضعف . وقد سماه رسول الله (ﷺ) بالوهن الذى يصيب الأمم. " توشك الأمم أن تداعى عليكم ، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ! قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال: لا بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قيل : وما الوهن يا رسول الله قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت ".

وهذا الشعور بالثقة مصدره أن الإسلام هو فى الوقت نفسه دين الله. دين الخير والحق والسلام، دين استعلاء بالنفس، لا استعلاء بالغير أو على الغير. ﴿ **وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران : ١٣٩) ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ (آل عمران : ١١٠).

١٢ – التربية الإسلامية تختص بأن أفرادها شخصيات مستقلة : لهم كيانهم المتميز، كما أن مجتمعهم مجتمع متميز ، ومعنى ذلك التحرر من سلطان الغير تقليدا ومحاكاة. فكما أن الله خلقهم ، وميزهم بالخلقة طولا وقصرا ووسامة ودمامة - فما عليهم إلا أن

يتميزوا بالشخصية " لا يكن أحدكم إمعة يقول: إن أحسنت الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت " وهذا التميز يعزى إلى أن لهم مرجعا ثابتا يحكمهم فى آدابهم، وسلوكهم ، وأخلاقهم وسائر أمور حياتهم - وهو الكتاب والسنة.

وقد فرضت التربية الإسلامية للمسلم أن يتخذ ما يراه ، ويقرر بنفسه أمور نفسه بعد أن يستفتى قلبه ، ويتحرى فيما يقرر طمأنينة نفسه ، بحيث يأخذ بالأحوط والأسلم. يقول (ﷺ) : استفت قلبك ، واستفت نفسك . البر ما اطمأن إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك.

ويقف فوق كل ما تقدم ، وأوله وآخره الإيمان بالله من حيث إن الإيمان بالله الواحد الأحد يمثل صلب الإسلام وعقيدته ، وجوهر هذا الدين وحقيقته ، لأنه الأصل الذى يشتق منه ما عداه من أصوله وفروعه ، ويبنى عليه ما يؤمن به المؤمن ، وما يسلكه ، فى حياته . وليس هناك ما يؤكد صدق هذه الحقيقة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء : ١١٦)

والإيمان بالله الواحد لم يتصدر قمة العقيدة الإسلامية إلا لأنه يحقق كثيرا من المزايا للإنسان . ومنها ما يلى :

١ - أنه يجعل لمسعى الإنسان هدفا وغاية . فالناس بطبيعتها تحب الحياة ، وتتشبث بها ويدفعها إلى ذلك أكثر وجود الأولاد - قلوا ، أو كثروا - لتحقيق الحماية لهم والاطمئنان عليهم فضلا عن أن إحساس الإنسان بأن مسعاه يعود إلى أقرب الناس إليه ، يجعله يحرص على الاستمرار فى هذا السعى ، أما إذا افتقد الولد فإنه يمكن أن يبدد ما يملك ، أو يتقاعس فى السعى فى الحياة ، وبالتالى يقل مستوى التعمير فيها . أما إذا آمن الإنسان بالله إيمانا صادقا أحس أن جهده ، وعلمه موجه لله ، وبالتالى فإنه يستهدف فى حياته غاية من أسمى الغايات وهى التوجه إلى الله بعمله ومسعاه ، حتى وإن أنفق ما يسعى إليه إلى غيره ، لأنه مردود إليه يوم القيامة بضمان الله له. ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (آل عمران : ١٩٥).

٢ – أنه أى الإيمان بالله يجعل الإنسان يدرك بدهيات الحياة ، ومجريات الأمور . فالله هو الكمال المطلق فى كل شئ ، والناس فى هذا السلم درجات ، ولا سبيل أمامهم لبلوغ هذا الكمال . فكمال الله كمال مطلق ، وكمال الناس كمال نسبى . والإيمان

بالله يدفع المؤمن إلى القرب من هذا الكمال ، كما يستبيح العذر لنظيره المؤمن إذا أخطأ . فالكل شركاء فى الخطأ . فإذا استقام إيمان المؤمن على هذا النسق استمرت الحياة ، وتماسك المؤمنون فيما بينهم على الرغم مما يقع منهم من أخطاء ، لأن قيمهم مهما بدا فيها من الكمال فهى ناقصة ، وأخطاءهم فيما بينهم مهما تعاظمت فهى غير فاحشة.

والمؤمن إذا تفهم مجريات الأمور ، وطبائع النفوس ، ضمن لنفسه الاستمرار فى الحياة، والتفاعل مع كل ما يدور فيها بوعى وإدراك.

٣ – أنه أى الإيمان بالله يجعل المؤمن يشعر بالعزة والكرامة . فإذا كانت العبودية الحقة لله وحده ، وليس لأحد مهما كان شأنه أن يتأله على غيره ، أو يتسيد عليه - فإن من حق هذا المؤمن أن يرفع رأسه أمام الكل ، ولا يطأطؤها إلا لمن جاء به إلى هذه الأرض وجعله خليفة له ، مثله مثل غيره من ملايين الخلفاء الذين حلوا ضيوفا عليها، واستووا فى المسئوليات التى قسمها خالقهم عليها فيها.

ومعنى هذا كله أن التبعية الحقيقية هى تبعية لله وحده وهى تحقق للإنسان الشعور بالعزة والكرامة أما التبعية للغير فهى افتراء محض، ووهم كاذب وهى طريق المذلة والهوان.

٤ – أن الإيمان بالله يحمى المؤمن من الوقوع فى أسر الأساطير، والخرافات، والمعتقدات الباطلة . فالذين يروجون لمعتقد باطل، أو لأشياء لا وجود لها، أو لواقع مزيف، أو لخيال متوهم، أو لرؤيا مريضة يبغون من وراء ذلك تحقيق مكسب ذاتى، أوهوى شخصى - هؤلاء لا يحققون ذلك إلا فى غياب الإيمان الصحيح بالله تعالى، لأن فى تواجد هذا الإيمان طردا لمختلف الإدعاءات والأساطير. والفراغ من الإيمان طريق مفتوح للخرافات والأباطيل وكل ما يتنافى مع العقل.

٥ - أن الإيمان بالله يضع حدا فاصلا بين الطمع ، والطموح فى شتى مناحى الحياة . فبعض الناس لا يستطيع السيطرة على نفسه أو كبح جماحها، أو وضع معيار لمكاسبه مادية أم معنوية، مما يبيح لنفسه الحق فى تحقيق ما يريد حتى ولو كان ذلك على حساب الغير ، أو على حساب نفسه من إذلالها، أو إهانتها.

ويأتى الإيمان بالله عاصما للنفس ، ورادعا لها ، وحاميا أكيدا من المخاطر التى يمكن أن تنزلق إليها . ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران : ١٠١).

ومعظم الذين يصابون بأمراض نفسية ، أو عقد شخصية هم الذين لم يستطيعوا أن يحققوا لأنفسهم شيئا، أو طلبوا أكثر مما تسمح لهم به قدراتهم، فأحسوا بالفشل والعجز. ولو أدركوا حقيقة ما طلبوا وقيمته ومستواه ، وتدخل العناية الإلهية فى تحديد هذا المقدار بعدل مطلق، ومساواة تامة - لجنبوا أنفسهم تحميل الأمور أكثر مما تحتمل، وطرحوا مقولة أن القدر يعاندهم ، أو يترصد خطاهم.

إن الإيمان الصحيح يضع الأمور فى نصابها ، فالطموح سنده العمل والمثابرة ، ثم الركون إلى الله ، يجازى بما شاء ، أما الطمع فهو ركوب الخطأ والصواب ، وسنده الشهوة وإشباع الرغبة ، وتجاوز الحق . ومع هذا لا يتحقق إلا ما أراده الله، لأن الله لا يقع فى ملكه إلا ما يريد.

رابعا : وسائط التربية الإسلامية .

يقصد بوسائط التربية الإسلامية تلك الأجواء الذى يعيش فيها المسلم، ويخضع فيها لمجموعة من المؤثرات التى توجه تفكيره، وميوله، وترسم له عاداته وتقاليده، بحيث يمارس ذلك تلقائيا، سواء أراد أم لم يرد. وتعد هذه الوسائط من أهم العوامل التى تشكل تربية الفرد، سواء أكان صغيرا أم كبيرا، لكنها مع الصغر أكثر. ونظرا لتلك الأهمية، فمن المستحسن عرض أهم هذه الوسائط ومنها ما يلى :

١ – **البيت :** يعد البيت أول وسط يستقبل الإنسان فى هذه الحياة. وعلى قدر اهتمام البيت بالتغذية الصحية، والتغذية الإسلامية، بمقدار ما يستطيع هذا الإنسان مواجهة الحياة: صحيا، وروحيا. وبمقدار السيطرة على المصادر السليمة التى يتم عن طريقها تلك التغذية بمقدار ما يقوى هذا الإنسان فى التغلب على مشاكل الحياة وصعوبتها. ويقع دور الأب والأم فى هذا الجانب فى المرتبة الأولى من حيث التوجيه، والأسوة الحسنة . وعلى قدر ما يسلكان ويتصرفان بحكمة وأدب حسن، وسلوك إسلامى بمقدار ما تنطبع فى ذهن النشء الممارسة الطيبة ، والسلوك المهذب.

والأخوة والأخوات أعضاء فى الأسرة، وكذا الأجداد والجدات إذا قدر لهما أن يعيشا مع الأحفاد، وهؤلاء وأولئك يسهمون فى التربية، بل يؤصلون القيم والآداب التى غرسها الآباء. فالأخوة والأخوات يغرسون قيم أقرانهم، وسلوك أعمارهم من حيث الثقة بالنفس، والمروءة والنجدة والبطولة، وسائر القيم التى تتمشى مع روح الشباب، وقوته. والأجداد والجدات يؤصلون جانب الرحمة ، ومطالب الشيخوخة وبذلك تتآزر الأجيال،

ويعيش النشء ، وقد تواصلت فيه قيم الماضى والحاضر وتبلورت فيه ملامح المستقبل ، وكل ما يؤهله لأن ينجح فى حياته فيما بعد.

٢ – **المدرسة** : ازداد دور المدرسة كوسط تربوى بعد أن تخفف البيت من وظيفته فى التربية إن لم تكن هى القائمة بالدور الأكبر فى هذه العملية ، بعد أن امتص سوق العمل جهد الآباء والأمهات ، الأمر الذى دفع الأب والأم إلى الركون إلى المدرسة بدءا من الحضانة حتى مراحل متأخرة من العملية التعليمية . والمدرسة وسط أكبر من البيت ، يتجمع فيه الأقران من مختلف البيئات والطبقات ، والمهن والحرف . وهم مع أنهم يتلقون تعليما موحدا ، إلا أن خلفياتهم مختلفة ، ووجهات نظرهم متباينة . والمدرس فى المدرسة يكاد يكون أول المؤثرات التى تتعامل مع التلميذ ، ثم بعد ذلك إدارة المدرسة وجو المدرسة ككل من حيث الطلاب ، والمناهج الدراسية ، والأنشطة التى يمارسها هؤلاء الطلاب . من هنا فإن التربية المدرسية لكى تؤدى دورها المنوط بها فإن اختيار العناصر البشرية التى يتعامل معها هذا الطالب ينبغى أن يخضع لمجموعة من المعايير والضوابط الدينية والتربوية ، لأنهم فى النهاية هم قدوة الطلاب ، ونموذجهم الأمثل.

ويأتى بعد اختيار المدرس المنهج المدرسى بما يتضمنه من أهداف ومحتوى ، وطريقة وأنشطة مدرسية ، ووسائل تعليمية وتقويم . فهذا المنهج هو صلب العملية التعليمية ، ومن هنا فإن نجاح العملية التعليمية رهن بكفاءة هذا المنهج ، ومضامينه التربوية . يتساوى فى ذلك منهج العلوم الطبيعية ، ومنهج العلوم الاجتماعية . ومعلوم أن المدرس هو المنفذ الحقيقى للمنهج ، وهو الذى يوجه مساره – مهما كان مستواه – إلى الهدف المطلوب.

وتجدر الإشارة إلى أن المدرسة الآن توجه اهتمامها إلى الجانب التعليمى أكثر من الجانب التربوى . ويقاس مستوى المدرسة بمقياس الجانب التحصيلى للتلميذ ، أما ماعدا ذلك فلا أهمية له . صحيح أن المدرسة تقدم تربية للتلميذ لكنها تربية محدودة ، ومن هنا فلا غنى عن البيت كمصدر للتربية الأمينة ، فضلا عن الوسائط الأخرى . والمتوقع من المدرسة أن تهتم بالجانب الوجدانى ، خاصة حب القيم ، والجانب المهارى ، إلى الجانب التحصيلى.

٣ – **المسجد** : يحظى المسجد فى الإسلام بمنزلة عظيمة، حيث يلتقى فيه المسلمون، وقد تفرغوا كلية لله الواحد، وتركوا الدنيا وراء ظهورهم، واقبلوا على الله ليربوا أنفسهم على هديه وشريعته. صحيح أن المسجد فى بداية الدعوة الإسلامية كان المنطلق لكل

عمل يقوم به المسلمون ، ولكنه الآن تقلص دوره وأصبح مكانا للعبادة فقط ، ومع ذلك فهو فرصة المسلم من حيث مراس النفس ، وتربيتها ، والأخذ بأفضل ما لدى رواد المسجد من فضائل وقيم وآداب . ويؤم المسجد الصغير والكبير ، الرجل والمرأة وتتلاقى فيه الفئات العمرية، ويتعهد كل منهم الآخر بالتوجيه ، والنصح ، والإرشاد لأن المسجد هو بيت الله فى الأرض ، من دخل فيه فقد تحتم عليه الالتزام بما أمر به صاحب البيت من آداب وقيم ومعايير.

والمسجد مكان للحوار والمناقشة ، وطرح للمشكلات الدينية التى تواجه المسلمين فى يومهم وغدهم. والمسلمون حين يسمعون ذلك، يثرون خبرتهم، وينمون ثقافتهم ويعدلون سلوكهم، لأن ما يسمع خال من المنفعة، والزيف، كما يسنده الإخلاص والتقرب إلى الله.

ويمكن للمسجد أن يؤدى دوره فى عملية التربية إذا تم ما يلى :

أ - إذا ارتبط الطفل بالمسجد فى وقت مبكر ، حين يعوده أبوه على ذلك . والعادة الطيبة مطلب رئيسى للتربية.

ب — إذا زود المسجد بإمام لديه من الثقافة الدينية والثقافة العامة ما يسمح له بالرد على تساؤلات الأطفال والشباب والشيوخ بأمانة وصدق ، يساند ذلك السمعة الطيبة وحلاوة اللسان.

جـ - إذا توافر بالمسجد مكتبة إسلامية تحبب القراءة إلى كل من دخله . وأضعف الإيمان أن يكون به عدد من المصاحف ، تربط المسلم بخالقه ، وتشغله بصاحب هذا الكتاب، وذلك المسجد.

د — إذا أدى بعض الخدمات التى يمكن أن تستقطب المسلم اليه ، بحيث يرى فيه نفعا وفائدة ، كفصول التقوية، فى المواد الدراسية أو إقامة الندوات ، أو فض الخلافات ... الخ.

هـ -إذا استخدم الاستخدام الفعال للإسلام والمسلمين ، وابتعد عما يشوب رسالته من تحقيق نفع ذاتى ، أو هوى شخصى.

و - إذا رأى المسلم فيمن يؤمه فى المسجد، نماذج صادقة، وقدوة حسنة، وصحبة مشرقة، يتطابق قوله، مع فعله ، داخل المسجد وخارجه، وتتحقق فيه محصلة القيام والركوع والسجود والخضوع لله مع العمل لخدمة الناس فى معيشتهم.

ز – إذا رفع خطيب المسجد ضغوطه على المصلين الحاضرين ، ووجه عتابه إلى من لا يتردد على المسجد.

حـ - إذا أعد المسجد إعدادا طيبا من حيث نظافته ، وسلامة جدرانه ، ودورات مياهه وكل ما يساعد المصلى على التردد إليه ، والإطالة فيه أكبر وقت ممكن ، مفضلا إياه على أماكن اللهو والتسلية.

٤ - **جماعة الرفاق :** تعد جماعة الرفاق من الأوساط التربوية التى لها تأثير قوى وفعال على النشء ، فالطفل يؤثر فى نظيره . والمراهق يعلم ويتعلم من قرنائه . والأنداد يميل بعضها البعض ، والأشباه مع الأشباه . وواقع الحياة يرينا أن النشء - وكذا الكبار إلى حد ما يبدون فى شكل جماعات تآلفت فيما بينها ، وجمع بينها رباط مشترك . ووحدت بينها الرغبات والميول ، حتى يمكن القول: إن تعرف الجماعة يمكن من خلال واحد منها . ويؤكد ذلك الحديث الشريف " المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل " .

ويتعدد انتماء المرء لأكثر من جماعة . فهو فى المدرسة له أصدقاؤه ، وفى الحى الذى يعيش فيه له أصدقاؤه ، وفى النادى له أصدقاؤه ،وفى الأنشطة التى يمارسها ، أو يميل إليها له أصدقاؤه . وقد ينتمى لجماعة من أهله المقربين ، أو الأباعد ، وقد ينتمى إلى شلة واحدة ، أو جماعة واحدة ، وقد يكون منطويا فلا يكون له إلا أسرته الصغيرة وبعض من يثق فيهم . من هنا فإن واجب الأسرة من الناحية التربوية أن تهتم بما يلى :

أ – أن تختار - بذكاء وحكمة - الصديق الذى يصاحب ابنها بحيث يطمئنون إليه وإلى سلوكه واستقلال الشخصية بما لا يتعارض مع تعديل المسار للتربية الصحيحة.

ب – أن تلاحظ تصرفات الأقران بطريق غير مباشر ، حتى إذا بدا منهم ، أو من بعضهم ما يسئ إلى التربية ، بادرت بتعديل ما يصدر عنهم إلى المسار التربوى الحقيقى أو إبعاد ابنها عنهم.

ج - أن يكتسب أحد أفراد الأسرة ثقة المجموعة ، أو من يحل محله ، حتى إذا أحس الأقران أن هناك مشكلة تواجههم، باحوا بها إلى هذا الذى يثقون فيه. وتوزيع الأدوار فى التربية أمر وارد.

د – أن تطرح بعض الموضوعات أمامهم ، والتى قد يتوقع أنها إحدى المشكلات التى تواجههم . والفطنة هنا مطلوبة ؛ حتى لا تحدث أثراً عكسياً.

هـ - أن يتم الاحتكام إلى الدين فى كل الموضوعات التى تواجههم ، وطرح رأى الدين فيها ، بحيث يصبح الدين فى نظر النشء هو المحك الأساسى لكل تصرف يقومون به ، وبذلك يزدادون ثقة فيه ، والتصاقا به.

و – أن يتأكد لدى النشء أنه هو الثروة الحقيقية لأسرته ، وأن كل الاهتمامات الأخرى تتضاءل بجانبه ، حتى إذا جاء النصح والتوجيه بعد ذلك قابله بالرغبة والقبول.

ز – أن من يتصدى لهم بالحوار والمناقشة فى موضوع ما بينهم يشترط فيه القدرة على الإقناع ، والقدرة على امتصاص ما يطرأ عليهم فى خلال ذلك ، بحيث يخرج فى النهاية ، وله الغلبة عليهم بالحجة والدليل ، وإلا اهتز أمامهم كل توجيه صادر من الكبار.

حـ - أن يستغل ميل الأطفال إلى القصص ، فيقوم الأب والأم بحكاية القصص الهادفة والمثيرة ، والتى تتضمن أبعادا تربوية ، لما لها من مردود قوى عليهم.

ط – أن تكون الأسرة موضوعية فى أحكامها ، بحيث لا يتحول حبها لأبنائها ، إلى ممالأة لهم على غيرهم ، خاصة إذا ما نجم خلاف بين أبنائها ، وأبناء غيرهم ؛ ليبقى فى ذاكرة الكل أن لا شئ يعلو على الحق . والحق أحق أن يتبع ، وإلا نمت الأنانية واستباحوا السطو على حقوق الآخرين.

٥ – **نادى المسلم الصغير :** تجدر الإشارة على أن النوادى الأخرى لها بريق لا يقاوم من جانب الكثيرين من الناس رغم التكاليف الباهظة لعضويتها ، ومع ذلك فإن عليها إقبالا شديدا ، ولعل السبب فى ذلك أن التشبه بما هو أجنبى أو بما يقال عنهم الصفوة مقبول ومحبب إلى الناس ، بل يروج له ، بدعوى المدنية والحضارة. كما قد يكون وراءه بعض الاتجاهات المغرضة . ومنها بطبيعة الحال ما يتنافى مع الدين.

أما نادى المسلم الصغير فأغلب أعضائه من الصغار - إن لم يكن كلهم - وهو يهئ هؤلاء الصغار تهيئة مسلمة، قوامها تحفيظ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية وبعض المحاضرات التى يلقيها المهتمون بتربية المسلم الصغير، كما تتضمن هذه التهيئة إقامة الندوات، وعمل المسابقات الدينية، وكذا القيام ببعض الرحلات.

والنادى فى هذا كله يتوخى إعداد النشء - بنين وبنات - إعدادا دينيا ، ودنيويا مع التوجيه لكليهما ، ويبدو أن أعداد نوادى المسلم الصغير ليست بالكثرة التى بها

تستوعب كل الراغبين فى الانضمام إليها ، وهى على أى حال وسط ينمى فى الطفل الإحساس بالدين ، ويربى فيه بعض القيم التى يمكن أن تكبر معه وتصبح سلوكا من سلوكياته ، ويمكن أن يكون ذا أثر على القيام بأدواره التى يمكن أن تسند إليه فيما بعد.

وقد تؤدى الأندية الأخرى بعضا من التربية الإسلامية إذا تحرى القائمون عليها شرع الله ومنهجه ، لكنها فى الأعم الأغلب تجنح إلى الجانب الترفيهى ، وهو أمر لا يمكن ضبطه طبقا للشريعة الإسلامية . وإذا تم ضبطه فإن ذلك يكون فى أضيق الحدود لكن الضابط لكل ذلك هو سلطة الأسرة ، ودورها الرقابى على الأولاد.

٦ – **الكتاب:** لازال الكتاب - ونحن فى القرن الواحد والعشرين - محتفظا بوظيفته الأصلية ، وهى تحفيظ القرآن الكريم ، وتلقين الأطفال بعضا مما يتصل بأمور دينهم عن طريق أحد الفقهاء فى القرية أو المدينة . ورغم أن الكتاب وسط تربوى قليل الفائدة فى عملية التوجيه ، إلا أن عملية حفظ القرآن أو شيئا منه قد يترك هذا الحفظ شيئا من الأدب والتربية فى نفسه ، ولو فى مرحلة تالية من حياته.

والملاحظ أن أعداد الكتاتيب قد بدأت تقل لمزاحمة المدارس الابتدائية فى التعليم العام والمعاهد الدينية ، فضلا عن أن كثيرا من الآباء يفضلون لأبنائهم وبناتهم الالتحاق بالتعليم العام ، وفوق ذلك أن الفقهاء الذين يتصدون لعملية تحفيظ القرآن الكريم قد قل بديلهم بعد بلوغهم مرحلة الشيخوخة ، أو الممات.

وإذا كان هناك بعض المساجد ، وبعض الغيورين على حفظ القرآن يقوم بهذه العملية لصغار الحى ، فإنها مجهودات فردية ، ولئن غلبها الحماس اليوم فربما تفتر غدا ومهما يكن من أمر فإن الكتاب - بإمكاناته الضعيفة - وسط تربوى يعلم النشء شيئا ما من أمور دينهم . وما لا يدرك كله لا يترك كله .

٧ - **الجانب الإعلامى :** تؤدى وسائل الإعلام المختلفة دورا مهما فى عملية التربية ، لأنها حين تركز على جانب ما فإنما ترسخه فى أذهان النشء ، بحيث يمكن القول إنها تصل إلى درجة قريبة من اليقين ، ويدخل فى هذا : الإعلام المكتوب من صحف ، ومجلات ودوريات ، وكتب ، والإعلام المسموع : من راديو ومسجلات صوتيه" ، وأشرطة.

ولعل الإعلام المرئى هو أخطرها ، وأشدها تأثيرا ليس على الصغير فقط ، وإنما على

الكبير أيضا . ومنه التلفاز، والسينما ، وأشرطة الفيديو ، والإنترنت وكل ما يتعامل مع حاستى السمع والبصر.

ومن كل ما تقدم يمكن الخروج منه خاصا بتربية النشء ما يلى :

١ - أن البيت هو الأساس فى عملية التربية ، وأن قدوة الأب والأم لأولادهما ضرورة حتمية . وحبذا لو كان من الأقارب من يقوم بمثل ذلك.

٢ - أن البيت هو مركز إمداد الطفل بالقيم . وهو أمر لا يقل بأى حال من الأحوال عن عملية التغذية الصحية . والتوازن بين المطالب البيلوجية والنفسية أمر ضرورى.

٣ - أن دور المدرسة قوى وفعال فى التربية من منطلق أن التلميذ يعايش مدرسيه وأقرانه فترة طويلة . فالكل يعلم الكل ، فى ضوء الضوابط التربوية.

٤ - أن المناهج الدراسية يتحتم مراجعتها بين الحين والحين ، خوفا من أن يكون فيها ما يتعارض مع الدين ، فضلا عن تحقيق جانب المعاصرة.

٥ - أن الأنشطة المدرسية ينبغى التحكم فيها ، بالقدر الذى يحقق الهدف من التربية ومراعاة ممارسات الطلاب ، فى الأنشطة المختلفة.

٦ - أن يعود النشء منذ الطفولة على الارتباط بالمسجد سواء أكان ذلك عن طريق البيت أم المدرسة ، حتى ينشأ محبا له ، متعلقا به.

٧ - أن تلاحظ جماعة الأقران التى تحيط بالتلميذ ، ومعرفة ما إذا كانت فى صالحة أم لا لخطورة تأثير القرن على نظيره.

٨ - أن يتم الإعلان عن نادى المسلم الصغير بالقدر الذى عليه أى ناد آخر ، ولا مانع من التقريظ به ، وأن يراعى القائمون على الأندية الأخرى حق الله فى رعايتهم للنشء فهم مسئولون منهم وعنهم.

٩ - أن يشجع على حفظ القرآن الكريم ، والإعلاء من الوسط الذى يتم فيه التعلم تنشيطا لهذا الاتجاه . ولا مانع من تقديم بعض الحوافز المادية.

١٠ - أن تلتزم وسائل الإعلام بالإطار العام الذى حدده الإسلام ، وأن تدرك أن أى عائد مادى من أى شئ يتصل به لا يمكن أن يصل إلى مرتبة تربية النشء ، والحفاظ عليهم من كل ما يسئ إليهم خلقيا وأدبيا ؛ لأن القنوات الفضائية ربما تخفى وراء ما تقدم أهدافا مغرضة.

١١ - تجويد العملية التعليمية ، وتطويرها بصفة مستمرة ، بما يضمن جودة المخرجات التعليمية لأن التعليم الفقير ، لا يقدم إلا مواطنا ضعيفا ، عرضة للاختراق من أى جانب.

خامسا : بعض الأبعاد التى تساعد على التربية الإسلامية الصحيحة .

إن الإسلام باعتباره دينا عاما لكل الناس ، وشاملا لجميع الخلق قد زخر بالعديد من الوسائل التى تسهم فى تربية المسلم ، بحيث تغطى الواحدة منها ما غاب عن الأخرى وبحيث يكون المسلم فى حلقة متصلة من المواقف الإسلامية ، يأخذ الجرعة بعد الجرعة. وهو فى كل هذه المواقف إنسان نام متسام . وقد طالب الإسلام كل مسلم العمل بكل ما من شأنه أن يربى الأجيال ، ويرفع من إنسانيتها لتصل إلى درجة تكرم الله لها ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ** ﴾ (الإسراء : ٧٠) . ولعل من أهم هذه الوسائل ما يلى :

١ – تحرى الأصالة والشرف فى اختيار الزوجة ، قال (ﷺ) : " إياكم وخضراء الدمن قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء " . رواه الدارقطنى . وقد أثبت العلماء أن الصفات الخلقية والخلقية تنتقل عن طريق الوراثة . وإلى هذا أشار القرآن الكريم فى استنكار المستنكرين لمريم ﴿ **يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾ (مريم : ٢٨).

وتأتى ضرورة الأصالة والشرف من جهة أن الزوجة ليست مشاركة للرجل فى تربية الأولاد فحسب ، وإنما هى راعية فى بيت زوجها ، ومسئولة عن رعيتها بنص الحديث الشريف كما أنها أكثر التصاقا بطفلها وأشد تأثيرا عليه . ومن هنا يتحتم أن تكون على مستوى يسمح لها أن تكون أما ومربية ، لأنها تتعامل مع أسمى المخلوقات فى الوجود ، حيث تقدمه إلى ربه ، وإلى الناس أجمعين كدليل يشهد لها على حسن التربية ، وقمة الإسهام فى الحياة ، والجدارة فى القيام بوظيفتها . إن زوجة الرجل سكنه ، فإذا هممت بنكاح امرأة فسل عن أهلها ؛ فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة.

٢ - تحرى الجانب الدينى فى حالة الزواج ، لأن الزوجين إذا كانا على اتصال بالله بحيث يراعيانه - سبحانه - فى كل ما يتصل بتربية أولادهما كان ذلك كفيلا بامتداد رعاية الله لهما ولأولادهما حفظا ، وشمولا برحمته سبحانه . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: " تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها ، ولجمالها، ولدينها . فاظفر بذات الدين ، تربت يداك " .

يؤكد ذلك أيضا قول المصطفى (ﷺ) : " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ". وصلاح المرأة يجنب الأولاد المتاعب التى يلاقونها فى حياتهم ، لأنها اتخذت منهج الله أساسا لتربيتهم ، كما تجنب الأب المعاناة التى تلاحقه من جراء تصرفات الأبناء ، وتعطيه الفرصة لأن يتفرغ فى عمله ويبدع فيه.

لقد أصبحت تربية الأبناء فى عصرنا مصدر حيرة وقلق للوالدين، وليس هذا فحسب بل مصدر حيرة وقلق للمؤسسات التربوية والتعليمية ؛ لأنها إن أفلحت فى جانب فشلت فى آخر، بسبب عجزها عن الإلمام بكل الظروف المحيطة بهؤلاء الأبناء وليس هناك أقدر، ولا أكثر حكمة من الوالدين خاصة الأم.

إن صلاح المرأة ليس أمره مردودا إلى كونها متعة لزوجها فقط، بل إن له عائدا تربويا يتمثل فى ترسيخ القيم الفاضلة، والآداب الإسلامية الرفيعة لدى الأبناء، وبالتالى فإن إسهامها فى المجتمع، يبدو أكثر فى أن هؤلاء الأبناء مصدر إشعاع لذويهم ، وعامل استقطاب، وقدوة لأقرانهم، كما أن له عائدا اقتصاديا يتمثل فى قدرة الزوج فضلا عن الأولاد – على الإنتاج والإبداع بسبب توافر الظروف المساعدة فى البيت ، إلى جانب الخلفية القيمية التى ينطلقون منها لعملهم وأداءاتهم . ومعنى هذا أن تحرى الجانب الدينى لدى الزوجة ، إنما ينبع من كونها سكنا للزوج وحرثا له ، كما أنها شريكة حياته ، وربة بيته ، وأم أولاده ، فضلا عن ذلك فهم يرثون عنها كثيرا من المزايا والصفات ، وبالتالى فإنهم امتداد لها من حيث هذه المزايا وتلك الصفات ، إلى جانب رؤيتها للحياة ، معتمدة فيها على شريعة الله ، تنشئهم عليها ، وتربيهم على أساسها.

٣ – غرس عقيدة الإيمان بالله لدى النشء، فالإيمان بالله هو الأساس الذى ينطلق منه تصور الإنسان لنفسه وللكون، وللحياة، ولرب الكون والحياة والإنسان. وهذا التصور إذا فسد فسدت الحياة كلها من ورائه، حيث يفسد العمل، ويفسد الخلق وتفسد العلاقات. إن صحة هذا التصور هى التى تعرف الإنسان بسر وجوده وغاية حياته، وما وراء حياته، حيث يؤمن أنه يعيش لغاية كبرى هى خلافة الله فى الأرض ورضوانه وجنته فى الآخرة.

ويجب أن يتأكد أن غرس الإيمان بالله الواحد وسائر عقيدة التوحيد ليست وسيلة للتربية، وإنما هى أساس وشرط ضرورى ، وبدونها تنتفى صفة الإيمان عن المؤمن ، أما الإيمان بما بعد ذلك فهو وسيلة للتربية، فمن أمن بدوره فى الحياة أخذ بالأسباب الموصلة

إلى هذا الدور . ومن آمن بعمله – أيا كان هذا العمل – وهيأ نفسه له من حيث الإعداد والإتقان والجودة ، وعرف أن دوره فى عمله هذا - صغر أم كبر - إنما هو إسهام فى الحياة - فقد تربى على هدى الله وسنة رسوله . " اعملوا فكل ميسر لما خلق له ".

٤ – توجيه النشء بالحكمة والنصح . " وهى التربية التى تعتمد على وسائل الإقناع الفكرى المنطقى المؤيدة بالحجج والبراهين المثبتة للحقائق ، وتكون الحكمة باتخاذ الأساليب الملائمة للحالة النفسية والفكرية التى عليها المستهدفون بالتربية ".

كان (ﷺ) مبلغا عن ربه ، الواحد الأحد ، فاتبع نفس الطريق التوجيهى الذى فصله ذلك الحكيم المطلق فى كتابه العظيم ، فجاءت كل تعاليمه أيضا تتلاءم والظروف والبيئات والملابسات ، ولم ينطق إلا ما اقتضته المناسبة وما وافق الجو وما من شأنه أن ينفذ إلى مسارب القلوب مباشرة.

وقد حمل الإسلام الآباء تبعة توجيه أولادهم ، وحسن تربيتهم . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ (التحريم : ٦).

وتبدو التربية بالحكمة القائمة على الإقناع - مثلا - فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾ (النساء : ٨٦) . فالآية تثير الجانب الإنسانى فى الإنسان حين يكرم المسلم أخاه عليه أن يرد التحية بأحسن منها، فإن لم يكن ، فعلى الأقل من باب المعاملة بالمثل أن يرد التحية بمثلها مهما كانت الفوارق الدنيوية بينهما.

وأما النصح فى التربية فهو أمر وارد ، ولكنه يختلف باختلاف الزمان والمكان وبشرط أن لا يسبب الحرج للغير فلا يمكن – مثلا – أن يكون النصح على ملأ من الناس . ومن هنا شاعت المقولة المعروفة " النصيحة على الملأ فضيحة " .

والنصح والتوجيه كما يكون للكبير يكون للصغير . فالنبى (ﷺ) قال لعمر بن أبى سلمه، وكانت يده تطيش فى الصحفة: "يا غلام سم الله، وكل بيمينك ، وكل مما يليك". (البخارى ومسلم).

والتربية بهذا الاعتبار عملية مشتركة بين المسلمين جميعا . كل يناصح أخاه ويفتح له أبواب الخير، ويرشده إلى ما ينبغى أن يكون . والناصح الأمين يؤجر على نصحه ؛ لأنها عبادة . قال (ﷺ) لعلى بن أبى طالب (ﷺ) وهو يحثه على الحكمة والرفق والأخذ بالتى هى أحسن : "فلأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم".

٥ - تحرى الحلال ، والابتعاد عن الحرام فى كل شئ. فالإسلام يخلى بين الفرد وبين جهده ، وكفاحه لاكتساب ما يعيش عليه بطريق حر ، ويعتبر كل ما يكتسب بعرق جبينه وكد يمينه ملكا مشروعا له . هذا فى جانب ، وفى الجانب الآخر هو يقيم حدود الحلال والحرام فهو إن كان يملك ما اكتسب من ثروة إلا أنه يجب أن يتحرى الحلال ويبعد عن هذه الثروة ، ولو مثقال ذرة بطريق الحرام ، لأنه إن فعل ذلك أثر على تربية من يشاركونه معيشته ، " كل جسد نبت من حرام فالنار أولى به " إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ (المؤمنون : ٥١) . ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴾ (الطلاق : ٢ ، ٣).

ومعنى هذا أن من أنفق على نفسه وعلى أسرته من حرام ؛ لم يسلم هو وأولاده من عقاب الله . وليس معنى العقاب هنا نزول الآفات والمصائب عليه ، بل إن الله سبحانه يجريها عليه وعليهم بطرق متعددة : منها أن ينزع الله البركة منهم فى أعمارهم ، فى مستقبلهم ، فى صحتهم ، ويكفيه أن الله يحرمه من الاستجابة لدعائه .

٦ – **القدوة الحسنة :** تعد القدوة الحسنة وسيلة مهمة من وسائل التربية . والإنسان فى بداية طفولته يحكمه جانب التقليد والمحاكاة. فإذا كان المحاكى قدوة تأصلت فى النشء القيم والآداب والاتجاهات والميول الجديرة بأن تتبع ، ثم ترسخ فيما بعد حين يشب هذا النشء ويدرك ما أخذه من القدوة . ومن هنا يتأتى دور الأب والأم وكذا كل المحيطين بهذا النشء من جهة أن كلا من هؤلاء يتحتم عليه أن يفعل السلوك السوى ؛ إذ قد يكون هو الشخص المقتدى به (ﷺ).

ويعد رسول الله (ﷺ) قدوة المقتدين ، لأنه النموذج الأمثل للبشرية ، حيث إن حياته وسيرته هى النهج السليم ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ (الأحزاب : ٢١).

وتعد سيرة الصحابة والتابعين ومن برع فى أى مجال من مجالات الحياة نموذجا لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم ، لأن المثال الحى الذى يتحلى بجملة من الفضائل السلوكية يعطى غيره قناعة بأن بلوغها من الأمور التى هى فى متناول القدرات الإنسانية . فمما نشهده فى مجال التربية أن كثيرا من الناس يرون بعض الأمور مستحيلة الوقوع ،

لأنهم لم يعالجوا قدراتهم للقيام بها ، فإذا شاهدوا غيرهم يفعلها أخذوا يطوعون قدراتهم حتى يكسبوها المهارات المطلوبة لذلك العمل بالمعالجة والمحاكاة والتدريب.

وتزداد قوة القدوة الحسنة ، وقدرتها على التأثير إذا دعمت بالممارسة الفعلية من جانب القدوة ، إذ يحس الفرد المحاكى ارتباط الكلام بالفعل ، والنظر بالتطبيق بحيث يمكن أن يؤدى به إلى التعميم ، أما إذا انفصمت العلاقة بين ما يقال وبين ما يرى حينئذ يمكن أن تؤدى إلى فقدان الثقة ، وطرح جانب القدوة ، وقد يؤدى ذلك إلى اتخاذ القرين السوء مثلا له ، أو ملجأ يلوذ به.

ومعنى هذا أن القدوة أشد فعلا فى النفس من النصيحة . والتعليم المقصود لا يكون قوى الأثر إلا بمقدار مطابقته لسيرة الأفراد الذين يكونون بيئة الطفل الاجتماعية.

٧ – **إثارة الانتباه** : واستقطاب الفكر ، وحمل العقل على أن ينشط ، وذلك عن طريق طرح بعض الأمثلة التى تحتاج إلى شئ من التفكير والفطنة ؛ رغبة فى قدح الذهن وإعمال الفكر ، واختبار الذكاء.

قال (ﷺ): "إن من الشجر شجرة، لا يسقط ورقها، ولا ينقطع نفعها، وهى مثل المسلم . حدثونى ما هى ؟ قال ابن عمر: فوقع الناس فى شجر البوادى، ووقع فى نفسى أنها النخلة، ولكن ابن عمر استحى أن يجيب احتراما لكبار الصحابة . ولما اخبره إياه بهذا فيما بعد ، قال له : لأن تكون قلتها أحب إلى من حمر النعم " .

٨ – **التكرار**: تتعامل مادة التربية الإسلامية – أكثر مما تتعامل – مع القيم والمعايير والآداب. وتعاملها مع المعلومات إنما يستهدف منه العائد القيمى ، ولذا يراعى التكرار كأسلوب من أساليب ترسيخ تلك القيم.

ولعل فى تكرار الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، وتكرار الصوم مرة كل عام وقد يكرره المسلم من تلقاء نفسه عشرات المرات فى السنة الواحدة، وكذا تكرار الحج أكثر من مرة فى العمر - لعل ذلك من باب حملها على الطريق القويم، حتى إذا زلت النفس مرة ما وجدت فى العبادة التالية ما يذكرها، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله(ﷺ) قال: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان - مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر . (رواه مسلم وغيره).

والمنهج المدرسى فى التربية الإسلامية يصعب فيه وضع حد فاصل بين قيمة وقيمة ،

لأن فروع التربية الإسلامية : عقيدة ، وعبادات ، أو معاملات ، أو سيرة ، أو تهذيبا تتداخل فيما بينها ، وفى المستهدف منها ، بحيث يمكن القول أن قيمة الأمانة - مثلا - قد تتواجد فى كل تلك الفروع وغيرها ، من هنا فإن التكرار أمر مطلوب ووسيلة واردة فى التعامل مع النفس الإنسانية.

وإذا كان التكرار فى الأمور العقلية يمكن أن يتحول إلى عمل آلى — فإنه فى الأمور الدينية يمكن أن يتحول إلى عمل تلقائى ، تقبل عليه النفس بحب ورغبة ، إذا تشربتها وأصبحت جزءا من تكوينها.

٩ — الترغيب : الترغيب من الوسائل التى استقطب الإسلام بها أبناءه إلى فعل الخير ودفعهم بها إلى فعل السلوك الذى يحبه الله ورسوله ، ووضع أمام المسلم الهدف الذى تميل إليه النفس وتهواه ، حتى تندفع إليه بحب ورغبة ، فضلا عن الانتفاع بالجزاء الذى أعد لهذا العمل ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور : ٥٥) وقول النبى (ﷺ) : "إن الله يحب مكارم الأخلاق ، ويكره سفسافها".

والترغيب يخاطب النفس ، ويستميل الوجدان ، ويؤثر على المشاعر ، وينقل النفس من حال إلى حال . وقد فطن إليه المسلمون فى بداية حياتهم فاستخدموه سلاحا لخدمة أغراضهم ، وتحقيق مأربهم سواء أكانت هذه الأغراض شخصية أم جماعية . وقد برز هذا بشكل خاص فى الجانب السياسى ، أو المذهبى وهو بهذا الاعتبار سلاح ذو حدين . فهو كما يستخدم للبناء يستخدم للهدم . ويمكن أن يستغل الترغيب فى الجانب التربوى إذا اعتمد على الإقناع والمنطق ، واللجوء إلى الحقائق التى أقرها القرآن ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨).

والترغيب يفيد مع الصغير والكبير ، كل على حسب فهمه ، وقدرته على تصور الأشياء . وعلى قدر أهمية المرغب فيه ، وقيمته ، يندفع الإنسان إليه . وهذا أمر طبيعى مع البشر ، فهم مع الإفادة ، والمنفعة وجودا وعدما.

ويبدو أن هناك بعض الناس ممن تغلغل الإيمان فى قلوبهم ، وتمكن حب الله ورسوله

منهم لا يصدرون أعمالهم من واقع المنفعة ، أو الإغراء بما يعود عليهم من الفائدة وهؤلاء هم الذين يتعاملون مع الله بالأدب الربانى ، حيث يعتقدون أن الآداب الإسلامية صادرة عن الوحى الإلهى : أصولها ، وأساسها ، والتى لابد منها لكى تعلن الشخصية الإسلامية عن نفسها : مظهرا ، ومخبرا ، قولا وفعلا.

١٠ – الترهيب : الترهيب وهو التخويف من الإقدام على شئ ليس مرغوبا فيه . وهو الوجه الثانى للترغيب ؛ إذ أنهما وجهان لعملة واحدة هى حمل الناس على أداء عمل ما، أو حملهم على ترك المرغوب عنه .

وقد يكون اكثر فعالية من الترغيب ، لأن الإنسان إذا استحضر العقاب على العمل ووعى ما يترتب عليه فإنه - فى أغلب الأحوال - يتراجع عن أداء هذا العمل " إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " .

والترهيب كوسيلة تأديبية لابد أن يتناسب مع ما هو له ، وإلا انقلب إلى تمرد وانحراف كما أنه يعتمد أيضا على الإقناع وتقديم المعونة أولا ثم الوعيد بعد ذلك . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الحجرات : ١١) .

إن الإلمام بالطبائع البشرية طفولة ومراهقة وغيرهما أمر ضرورى تفرضه عملية التأديب، وإن عمليتى الترغيب والترهيب كميزان فى التربية ينبغى أن يمارسا بحكمة ورشد، فكما أن البعض يجدى معه الترغيب، فالبعض الآخر لا يفيد معه إلا الترهيب .

العبد يقرع بالعصا .. والحر تكفيه المقالة

والقرآن الكريم يعرض - عادة - الترغيب والترهيب فى سياق واحد لكى يعطى للعقل فرص الموازنة والاختيار . وهذا يتفق مع ما يقرره القرآن فى أن من حق كل إنسان أن يقرر ما يراه هو ، لأنه هو الذى يتحمل مسئوليته لا غيره ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾(فاطر : ٧).

وتبلغ التربية الإسلامية إلى الهدف منها إذا وصلت إلى المرحلة التى يعلو فيها ضمير الإنسان ويصبح سوطا على النفس ، وضابطا للهوى ، وحكما على كل شر ومسيطرا على كل أداء " إن الزاجر قوة فى الإنسان إذا تكامل كان نعمة ورحمة ، وهدى له. فيه

يستقيم حاله ، فيكون الصدق شعاره والإخلاص بابه ، والطاعة خصاله . فالزاجر بهذا المعنى واعظ فى القلب يدل على خوف العبد من وعيد الله ورجائه فى وعده تعالى، وفى الأثر "ازجر المسىء يتوب المحسن".

١١ - سد باب الذرائع : تحتل وسيلة سد باب الذرائع مكانا مهما فى التربية الإسلامية وهى تنطلق من مسلمة قوامها قوله تعالى ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨) إن الشيطان يجرى من ابن أدم مجرى الدم " . فالإنسان معرض للضعف والفتنة وغلبة الشيطان عليه ، ولهذا حال الإسلام بينه وبين المقدمات التى توصله إلى التردى فى الفاحشة والوقوع فى المعاصى ، وحتى فى جانب العقيدة يحرص المسلم على تجنب كل ما من شأنه إثارة القلق والبلبلة ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام : ٦٨).

وإذا كانت الوقاية خير من العلاج فى الجانب الصحى فإن الابتعاد عن كل ما فيه شبهة الحرمة هو خير علاج لتربية النفس ، ذلك لأن النفس إذا ألفت شيئا ما يمكن أن يتحول إلى عادة ، وبالتالى يصعب التخلى عنه : ومن حام حول الحمى يوشك أن يواقعه.

وقد رتب الفقهاء والأئمة ، وفى مقدمتهم على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما أحكاما على المقدمات باعتبار ما يفضى إليه من نتائج. فقد روى الدار قطنى فى سننه أن عليا رضى الله عنه قال لعمر ، وقد ذاكره فى حكم شارب الخمر : إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى - أى قذف - وعلى المفترى - أى القاذف - ثمانون جلده فحد عمر شارب الخمر ثمانين جلده ، فجعل على شارب الخمر ثمانين جلده ، وأقره ، وعمل بقوله عمر رضى الله عنهما ، ذهابا إلى أن شربها مقدمة من نتائجها القذف . وحد القاذف ثمانون جلده.

وسد الذرائع ليس وقفا على جانب المعاصى ، وإنما يشمل - ضمن ما يشمل - كل ما من شأنه أن يشكك الإنسان فى دينه حين يترك نفسه للوسائل الإعلامية الأجنبية المختلفة خصوصا إذا افتقد جانب الحصانة الإيمانية التى تمكنه من تفنيد ما يسمع ، وما يقرأ انطلاقا من القاعدة الشرعية التى تقول : دع ما يريبك إلى ما يريبك.

ومعنى هذا إن التربية الإسلامية لا تستهدف الحصار على المسلم بقدر ما تستهدف

المحافظة عليه ، لأنها تدرك جيدا طبيعة النفس البشرية ، والبواعث المختلفة التى تحركها سواء أكانت هذه البواعث من داخل النفس أم من خارجها.

وليس هناك أقوى فى سد باب الذرائع من وصايا رسول الله (ﷺ) الجامعة - ومنها بطبيعة الحال مجال التربية ردا على أسئلة فى مواقف مختلفة لا تغضب . قل آمنت بالله ثم استقم . كف عليك لسانك.

١٢ - التربية من خلال الجماعة : تبدو التربية الجماعية فى الإسلام ملتصقة إلى حد كبير فى جانب العبادات . والعبادات فى الإسلام ليس الهدف منها القرب من الله الخالق فقط ، وإنما هى أيضا قرب المسلمين بعضهم البعض . ودا وتراحما ، وتماسكا وحبا وإن كان قرب المسلمين بعضهم البعض داخل فى القرب من الله . وهذا القرب قرب فى العادات والتقاليد والأخلاق ثم قرب فى شتى مظاهر الحياة عامة . ويحكم التربية هنا قوله(ﷺ) : "مثل الجليس الصالح مثل بائع المسك ، إن لم ينلك منه أصابك من ريحه ومثل الجليس السوء مثل نافخ الكير ، إن لم تصيبك ناره ، أصابك شرره " ويمكن عرض بعض هذه مظاهر.

أ – **صلاة الجماعة** . وهى تتكرر خمس مرات فى اليوم والليلة فى الفريضة ، وهذا التكرار يعطى للمسلم فرصة المراجعة ، وتعديل السلوك ، بناء على ما يقوله فى صلواته ، وما يشاهده من سلوك الصالحين من الجماعة . فالكل يتعلم من الكل يأخذ العادات المقبولة ، وينبذ العادات المرزولة.

ب – **صلاة الجمعة** . وهى مرة واحدة كل أسبوع ، والمجتمع فيها - فى العادة - أكثر من الجماعة المفروضة فى اليوم والليلة ، وفرصة الاحتكاك بالمسلمين الآخرين - صغارا وكبارا واردة ، كما أن مشاهدة النماذج الطيبة ، والاستماع إلى خطبة الجمعة ومراقبة بعض الأعمال الخيرة التى تتم فى هذا اليوم - وسائل فعالة تساعد المسلم على أن يتأدب بآداب القرآن ؛ لأن كل ما يتم فى هذا المجتمع لا يمكن أن يخرج عن الإسلام وآدابه.

جـ - **صلاة العيدين** . وهى تتكرر مرتين فقط فى العام . وإذا كان العيد يعنى الفرحة فإن الفرحة تطرح نفسها للتساؤل . ما الفرحة فى الإسلام ؟ لا شك أنها تسلية للنفس ، وترويح للقلب ، والخروج عن المألوف الآلى . ويخرج المسلم من هذا التساؤل بأنها الفرحة المنضبطة ، التى تتم فى إطار الدين وقيمه ، وآدابه السمحة ، وفرصة لتسوية

الخلافات التى تنشأ بين الأفراد ، الجماعات ؛ لأن المناسبة ربما تجعل الإنسان يراجع نفسه مراجعة مبنية على الصفاء والإخلاص.

د – **صلاة الجنازة** . وهى لا زمان لها ولا مكان . فإذا كان العيد يعنى فرحة الاندماج فى الحياة ، والإقبال على الدنيا – فإن صلاة الجنازة تمثل وقفة للمسلم يراجع فيها نفسه ويحاول أن يعدل سلوكه بعدها مع الله ، ومع الآخرين.

إن ميزان الدنيا والآخرة يعدل نفسه فى مثل هذه المواقف التى يمر بها المسلم ، حيث يربى المسلم نفسه بما يمكنه من الإمساك بطرفى الدنيا والآخرة . وتعديل السلوك فى مثل هذا الموقف أمر وارد وإن تأقت ، أو تأخر.

هـ – **الصيام والحج** . فالصيام ميدان لتربية النفس ، والسيطرة عليها ، والحج تجمع إسلامى على أوسع نطاق . الكل يكتسب التربية ، والسلوك السوى من الكل . وهو بمثابة نقل العادات الطيبة التى وصل إليها المسلم عبر تاريخه فى زمان ومكان معينين إلى أقرانه من شتى بقاع الأرض . ويمكن القول أن العبادات الإسلامية – تستهدف – ضمن ما تستهدف – تربية المسلم و ترفيع مستواه فى كل الأنشطة الإنسانية على أساس من الإفادة من شعائره ونسكه.

١٣ – الصوت العالى للحق : يحث الإسلام أتباعه على الشجاعة ، والجهر بالحق ، ويقرر أن الرزق والأجل بيد الله ، ولا دخل لأى عبد – مهما كان – فيهما ، والسبب فى ذلك الخوف من ضياع الحق – خصوصا حقوق الضعاف – بين الناس. ومن أجل ذلك دعا الإسلام إلى تربية النشء على هذا الأساس ، حتى يصبح سلوكا عاديا بينهم فإن لم يكن من كل المسلمين ، فعلى الأقل من معظمهم ، لأن تربية بغير هذا الشكل إنما هى تربية على مظاهر النفاق والضعف.

وقد تربى المسلمون على الشجاعة مصاحبة للاحترام ، وعلى الجهر بالحق مصاحبا للآداب . خطب عمر بن الخطاب ذات يوم فقال : أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه . فقام أحد الحاضرين وقال له: والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا فأجابه عمر بقوله : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر.

وخطب مرة أخرى فقال : أيها الناس لا تغالوا فى مهور النساء . فردت عليه امرأة وقالت : أيعطينا الله ، وتحرمنا يا عمر ! فقال عمر : أصابت المرأة وأخطأ عمر !!

والحق بعد فطرى فى الإنسان يرتاح له إذا صنعه ، فإن لم يستطع صنعه أتعبه و أقلقه وأصبح صوته كابوسا يقض مضجعه ، إلى أن يضطر إلى الإعلان عنه.

ومعنى هذا أن الإسلام يطلب من أتباعه أن يربوا أبناءهم - ذكورا وإناثا - على الشجاعة ، لأنها تعبر عن الإيمان العميق بالله ، ونضج الشخصية ، والاعتداد بالنفس ، وهذا يتطلب إتاحة الفرصة للأبناء أن يروا النماذج الصالحة ، وأن يمارسوا هذا السلوك مرارا وتكرارا أمامهم بطريقة طبيعية ، لا أثر فيه للافتعال فضلا عن تفادى عوامل الضغط والكبت ، والسخرية . وليست التربية أن يرتفع صوت الحق مع الغير وللغير فقط ، وإنما تتضمن أيضا إحقاق الحق مع النفس ، وتربية بهذا الشكل كفيلة بأن تفرز رجالا مثل عمر ابن الخطاب وغيره . صعد عمر بن الخطاب المنبر . وكان مما قاله : " والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد . والله ما من المسلمين إلا وله فى هذا المال نصيب ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله .فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وغناه فى الإسلام ، والرجل وصاحبه . والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى فى مكانه.

سادسا : بعض الفروق بين التربية الإسلامية وبعض التربيات الأخرى .

تجدر الإشارة إلى أن التربية بصفة عامة وليدة جهد إنسانى مشترك ، لأن الإنسان فيه من روح الله . وعناية الله مع عبده ، توجهه وتعلمه وتربيه ، فلم يتخل الله عن عباده ، ولن يتركهم وحدهم ، وإنما كان معهم برسله على تعاقب الأيام ، معلمين وموجهين ، وهؤلاء الرسل قد بلغوا رسالات ربهم إلى عباده ، وهذا التبليغ قد ترسب فى أعماق الأجيال جيلا بعد جيل ، وهذه الأجيال بعضها قد التزم بمنهج الله ، والبعض الآخر تخفف منه ، من هنا فإن الفرق بين التربية الإسلامية والتربيات الأخرى ليس فرقا قاطعا ، وإنما هو فرق نسبى خصوصا منها ما يتصل بالرسالات السماوية . وقبل عرض هذه الفروق يحسن أن نضع الاعتبارات الآتية :

١ – أن التربية الإسلامية تستند إلى دستور سماوى صادر عن الحق تبارك وتعالى، إن لم تكن كلها فعلى الأقل قواعدها الأصيلة، أما التربيات الأخرى فتستند إلى نظريات علمية، تفند اليوم ما أقر بالأمس، كما تستند أيضا إلى ديانات أخرى كتابية وغير كتابية.

٢ – أن التربية الإسلامية تستند إلى دين هو خاتم الأديان ، أحاط بكل ما يتصل بالإنسان، ووجهتها التربية الإلهية ، بينما التربية الأخرى تستند إلى ديانات أصبحت منسوخة بحكم شمولية وعصرية الدين الخاتم ، ومن ثم يكتنفها الإسلام ويستوعبها،

وإن اكتسبت مكانها فى الاتساع، وزادت فى العدد، وشغلت مساحة واسعة من العالم.

٣ – أن مصدر التربية الإسلامية محفوظ وموثوق به ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) أما مصدر التربيات الأخرى فإن كثيرا من الشكوك ، وعلامات الاستفهام تدور حولها . الأمر الذى يمكن أن يقال : إنها وضعية.

٤ – إن التربية الإسلامية تربية كلية للفرد والجماعة ، أما التربيات الأخرى فهى تربية جزئية ، تعالج جانبا وتنسى جوانب أخرى . ولماكان العالم اليوم يمثل وحده واحدة ، خصوصا بعد زيادة وسائل الاتصال بين بعضه البعض ، واصبح التأثير والتأثر أمرا واردا ، ولا يمكن إغفاله ، خصوصا على المستويات التى لا تستند إلى خلفية ثقافية إسلامية تحميها من الميل إلى هذا أو ذاك.

أبرز الفروق بين التربية الإسلامية وغيرها من التربيات الأخرى : يمكن عرض أبرز الفروق بين التربية الإسلامية وغيرها - وهى نظرة اجتهادية -

ومن أهم هذه الفروق ما يلى :

١ – أن التربية الإسلامية انفردت بين التربيات الأخرى أنها تتخذ من " التوحيد أساسا لكل ما صاغه الإسلام للمسلمين من تشريعات واضحة ، وحدود صريحة ، وقوانين نافذة تعادلت فيها الحقوق والواجبات، وتساوى فيها الجهد والجزاء، وكفلت فيها ضمانات المعيشة المادية وضمانات العدالة القانونية و تكاملت فيها عناصر البقاء والاستمرار " .

ومعنى التوحيد هنا أن يضع الإنسان خالقه أمامه فى كل سلوك يسلكه ، أو أمر يريده أو نية يتجه إليها ، أو موقف يتطلب منه الانحياز للحق ، خوفا من الواحد الحق.

٢ – أن التربية الإسلامية ليست الحرية فيها حرية مطلقة ، يمكن للفرد أو الجماعة فيها ممارسة أى نشاط ، وإنما الحرية فيها حرية مقيدة ، سواء أكانت حرية شخصية ، أوجماعية أو حضارية ولعل المجتمعات تزداد فيها الحريات كلما ازدادت القيود والالتزامات والتبعات :﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (التوبة : ٧١).

فالمؤمن للمؤمن صمام أمن ،وأداة توجيه ، وقوة تطبيع اجتماعى على التربية الدينية السليمة. وليست هذه الحرية وقفا على المؤمنين بعضهم البعض ، بل تتعدى إلى الأعداء. فقتل الشيوخ والنساء والأطفال مثلا - فى ميدان القتال أمر لا يبيحه أدب الإسلام بعكس ما تمارسه كثير من الدول الآن فى حروبها العسكرية ، من التشفى من رعايا الوطن المحتل بحجة الحفاظ على الأمن وما يجرى فى فلسطين والعراق اليوم خير شاهد على غلظة القلب وبشاعة عمليات القتل والتخريب ، ومعنى ذلك أن الحرية التى كفلها الإسلام حرية كفيلة حقا بالحفاظ على إنسانية الإنسان وتلتقى مع طبيعته الخالصة ، وواقع قيم الإسلام.

٣ – إن التربية الإسلامية تربية ملتزمة بالآداب والقيم الإسلامية بعكس التربيات الأخرى ومنها على سبيل المثال - التربية التى تبرر كل وسيلة لتحقيق وحدتها ولو تم ذلك عن طريق سلطة مطلقة ، لحاكم جبار ، لا يقيم وزنا للمعايير الإنسانية أو الخلقية ، مستخدما أسلوب المصلحة والمنفعة فقط ، وقد يحمد بما يفعل ، ويضرب به المثل ، وبأساليبه الملتوية بسبب خصومته الواضحة لقيم الدين ومكارم الأخلاق.

وإذا كانت بعض العقائد الأخرى تأخذ بهذه القاعدة نفسها فى مختلف الشئون السياسية والعلمية والمالية وغيرها من الشئون التى تحقق لها غاية من غاياته مهما كانت حقيرة - فإن الإسلام يتربع على قمة المجد فى مراعاة الحق والعدل والفضيلة.

وقد جاء فى البرتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون : أن السياسة لا تتفق مع الأخلاق فى شئ ، والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسى بارع ، وهو لذلك غير راسخ القدم على عرشه ...

لابد لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرياء ، فإن الشمائل الإنسانية العظيمة من الإخلاص والأمانة تعتبر رزائل فى السياسة . وهكذا تبدو التربية الإسلامية تربية ملتزمة بالحق والعدل والفضيلة ، أما التربية اليهودية فليست كذلك.

٤ – أن التربية الإسلامية تتفرد بأنها تتعامل مع الإنسان من حيث هو إنسان مخلوق لله لا حيلة له فيما هو عليه ككونه أبيض، أو أسود، أو أصفر أو أحمر، غنيا ،أو فقيرا ... الخ وبغض النظر عن دينه، أو جنسه، أو عرقه أو أصله ، أو لغته.

والإسلام بهذا الاعتبار لا يقر التفرقة العنصرية كما لا يقر محاباة الرجل وإهمال الأنثى أو العكس، وبالتالى فإن من تشبع بتلك القيم ، واعتناقها عن إيمان ويقين عامل الناس

بالمساواة ، من منطلق الأخوة بين البشر أجمعين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (الحجرات : ١٣) وعامل الناس بالتقدير والاحترام . قال (ﷺ) " ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه " . والمعاملة بهذه الطريقة هى نتاج تربية إسلامية تعود عليها المسلم منذ طفولته ، ورأى فيها ترجمة حقيقية لما تأدب عليه من أدب الإسلام ، بحيث أصبحت هذه المعاملة نشاطا تلقائيا ، لا شبهة فيها للافتعال أو التكلف الهابط.

وتبدو هذه الحقيقة دليلا واضحا ، لا تحتاج إلى بيان ، حين يصطف المسلمون أيا كانوا - فى صلاتهم بعضهم بجوار البعض . الأسود بجانب الأبيض ... الخ بدون تأفف أو تبرم ، كما يعد العدول عنها إيماءة جاهلية . وأبرز مثال على ذلك أن أبا ذر - وهو عربى من غفار - تغاضب مع بلال الحبشى - مولى أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أبو ذر وبلال صاحبين ، وتطور النزاع بينهما إلى أن أخذت أباذر الحدة فقال لبلال : يا ابن السوداء فشكاه بلال للنبى (ﷺ)، فقال رسول الله لأبى ذر : "طف الكيل ، أتعيره بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية.

والعصر الحالى ، وما سبقه ملئ بصنوف التفرقة العنصرية ، لا بين المواطن والأجنبى فقط وإنما حتى أبناء الوطن الواحد.

٥ – إن التربية الإسلامية تربية تتفق مع الجانب الفطرى فى الإنسان ، بحيث إذا خاطبت فيه هذا الجانب استجاب وأطاع ، ما لم يجبر على غير ذلك ، أو يقع تحت ضغط مؤثر يصعب التخلص منه . **ويمكن عرض بعض نماذج منها :**

أ – أن البنت إذا نوديت بغير جنسها ، استشعرت الإهانة والتهكم ، كما أن الولد إذا نودى بغير جنسه ، كان ذلك كذلك . وبالمثل فإن احتلال أى الجنسين لموقف الآخر يعتبر عملا غير مقبول ، ولهذا كان حديث رسول الله (ﷺ): " لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال " فخالف جانب الفطرة فى الإنسان وبناء على ذلك فإن المخالفة فى هذا الجانب تحتاج إلى دعاية إعلامية ضخمة لكى تضمن لها النجاح وهو نجاح موقوت سرعان ما يتلاشى وينتهى ، تحت ضغط نداء الفطرة ، وغلبة الطبيعة الإنسانية.

ب – أن الطفل الرضيع ينشأ وينشأ معه الإحساس بالملكية ، بدءا من اهتمام والديه واللعب التى تقدم إليه حتى أكبر الملكيات ، فإذا جاءت بعض الاتجاهات الوضعية

وحرمت الفرد من هذه الملكية ، والتعويض عنها بالملكية العامة ، كان اهتمامه بها أقل ورغبته فى تنميتها أضعف ، إلا أن يؤخذ بسلطان القوة ، ويعامل كالآلة ، وبهذا ينتقل من أدب الإنسان الاختيارى إلى الأدب الآلى القهرى ؛ الذى يطبع الأفراد بطابع واحد ويصبحون نسخة مكررة ، يمشى على الأرض.

جـ -أنه رغم التقدم فى الزمان والمكان فى القرن الحادى والعشرين - وحتى ما بعده - بقرون - فإنه لا يمكن تغيير نظرة الرجل إلى المرأة، ولا المرأة للرجل فى أن كلا منهما مكمل للآخر، ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ (النبأ : ٨) ومن هنا فإن غيرة الرجل على أهله : زوجةً، و أما، وأختا، وعمة، وخالة ... الخ أمر وارد. والتربية الإسلامية تدعمه وتقويه بنص ما جاء فى الحديث الشريف، بل تصعد جانب الغيرة لتصل إلى القريب والبعيد ، حتى تنتهى إلى الغيرة على الوطن ككل، ويتصل بتلك الغيرة أيضا غيرة الرجل على رجولته . ومنها - على سبيل المثال - استنكاف الرجل أن يكون كلا على زوجته حتى ولو كانت غنية ، ويبدو ذلك إذا تربى منذ طفولته على احترام ملكية الأنثى لمالها وحقها فى التصرف فيه . ومهما حاولت بعض التربيات الأخرى ومنها الغربية على سبيل المثال - قتل قيمة الغيرة ، وذلك بالتشجيع على الاختلاط بين الجنسين فى سن مبكرة والتمرس على مشاهدة التزين من جانب المرأة ، وكشف بعض أجزاء من جسمها - فإن جانب الفطرة فى الإنسان يطفو بين الحين والحين على شكل جرائم ترتكب بسبب المرأة أو غيرة المرأة على نفسها ، وذلك بالرجوع إلى تغطية نفسها.

د — أن التربية الإسلامية تراعى النفس الإنسانية من حيث المخالفة والاعتدال . فهى لا تقطع الطريق أمام المخالفين ، بل تترك لهم فرصة المراجعة بتربية أنفسهم بأنفسهم ، أو التأثر بغيرهم ، كما أن الاعتدال ليس مطلقا " كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون".

٦ - إن التربية الإسلامية تكاد تنفرد عن التربيات الأخرى من حيث أن البيت هو أهم طريق لتنشئة الطفل تنشئة سليمة " فإذا كان الأب مسئولا عن تغذية طفله ماديا ، فلا يهمله حتى يتعرض جسمه للهزال أو للمرض ، أو للموت . فهذه التغذية لا بد للأب أن يتحرى مصدرها فقد نهى (ﷺ) عن استرضاع المرأة الحمقاء حتى لا يتعدى حمقها إلى الطفل فيتسرب إلى نفسه الذكية مع لبنها فيلوثها بما يشوه جمالها ، ويغير

من طبيعتها ، إذا كان ذلك كذلك فهو مسئول عن تغذيته روحيا ، فلا يجوز له أن يهمله حتى لا يتعرض لما هو أشد خطرا من هزال البدن ، وهو مرض القلب.

ومن هنا كان أمر الآباء لأن يدربوا أبناءهم على طاعة الله ، وأداء فرائضه منذ بلوغهم سنا يقبلون فيها التعليم ، وهى السابعة ، والتشديد عليه إذا بلغوا العاشرة ، كما جاء فى الحديث " مروا أولادكم بالصلاة لسبع و اضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع". والأمر بالضرب هنا ليس مقصودا به التعذيب أو التنكيل، ولكن لإشعار الصبى والصبية بمدى جدية الأب فى طلبه للعبادة، وغضبه من عصيانه فى ذلك . والأم شريك الأب فى المسئولية، فهى راعية فى بيتها، ومسئولة عنه كما أكد ذلك النبى (ﷺ).

وليست مهمة الأب والأم فى التربية قاصرة عليهما من لحظة الميلاد ، بل إنها تمتد قبل زواجهما من حيث اختيار كل منهم للآخر . يقول (ﷺ) : " تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء " . وقد سئل سيدنا عمر رضى الله عنه عن حق الولد على والده فأجاب : "أن ينتقى أمه ويحسن اسمه ، ويعلمه القرآن".

٧ – أن التربية الإسلامية تنفرد بأنها تريد الخير للناس جميعا . ومنطلقها الأساسى أن الإسلام يغرس فى بنيه حب الخير للناس جميعا، والرغبة الملحة بأن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، والوصول إلى المشارف الحضارية الراقية، والرغبة الملحة أيضا بأن يذوق الناس معهم ما ذاقوه من إيمان منح قلوبهم الطمأنينة والسعادة والرضا، وبأن يشاركوه فى الإفادة من العلوم الدينية والمعارف الأخلاقية، وطرق تنظيم الحياة ليطبقوها، فيسعدوا بها، وبأن يسيروا معهم متعاونين متآزرين متآخين لتحقيق أكبر قدر ممكن من التقدم الحضارى الذى خصهم الإسلام به فى مختلف المجالات الإنسانية الفكرية والنفسية والسلوكية والمادية. والخير الذى يريده الإسلام لكل الناس خير فى مجالات الحياة كلها، سواء أكان نفعه دينيا أم دنيويا بعكس ما يحدث فى بعض المجتمعات. حدث أن أخطأ رجل أسود يوما ، فدخل كنيسة من كنائس البيض، وكان القسيس يعظ، ويتحدث، فلمح هذا الوجه الغريب بين الحاضرين، فلم يملك إلا أن اخرج ورقة مطوية أرسلها إليه، فلما فتحها الرجل الأسود وجد فيها: عنوان كنيسة السود فى الشارع كذا ..!!!

ومعنى هذا كله أن هذه الفروق الموجهة للتربية الإسلامية وغيرها ، إنما يعود إلى صنع الأفراد ، وحدهم ، لأن الدين عند الله الإسلام . فمن أسلم وجهه لله ، والتزم بالآداب

الإسلامية ، فقد تربى على نهج الإسلام ، و إن انتمى إلى غيره ، ومعروف أن الإسلام وضع المبادئ الكلية ، وترك الأمر بعد ذلك لمن يسن سنة طيبة ، كما أعطى الفرصة للإفادة من الغير ، انطلاقا من انفتاح الإسلام ، وتقبله لما يرضى الذوق السليم ، ويرتضيه العرف العام طالما كان ذلك داخلا فى إطار الشريعة السمحة .

سابعا : الإنسان العبد كمخرج من مخرجات التربية الإسلامية .

إذا كان للتربية الإسلامية غاية واحدة وهى إيجاد الإنسان العابد لله عز وجل الصالح للإنسانية جمعاء ، بحيث يمكن القول : إنه إنسان قرآنى قولا وفعلا – فما المكونات التربوية لهذا الإنسان العابد ؟

تجدر الإشارة إلى أن مفهوم الإنسان العابد ليس هو المقيم إقامة قليلة أو كثيرة فى مسجد ما، بين ركوع، وسجود، وذكر، ينتظر الإعاشة من غيره - قرب أو بعد؛ وإنما العابد الحقيقى الذى تربى على منهج الله وشريعته وطبع على الالتزام بالواجب ، وأحس بالجلال والرهبة من الله تعالى وسيطر على هوى النفس ومطالبها وتوافر فيها ما يلى :

١ – الانتباه واليقظة لما حوله ومن حوله ، فليس المؤمن غافلا وإنما المؤمن كيس فطن .

٢ – التعامل مع الحياة، والتفاعل معها، بحيث يترك المؤمن بصماته عليها ، على أن يتوجه بهذا التعامل وذاك التفاعل إلى الله واهب الحياة . فإذا كانت تعاملات الحياة متعددة ومختلفة فإن كلا منها يؤدى وظيفة لا تؤديها الأخرى، لأنها سنة الله فى كونه، فكل ميسر لما خلق له. وعلى هذا فلا يستهين المسلم بعمله مهما كان طالما أثبت ذاته فيه، وأتقنه ، وجوده.

٣ – العبادة الحقيقية لله . وهى تعنى فى جوهرها الإسلامى كل قول ، أو فعل ، أو عمل يؤدى خيرا للفرد، أو للجماعة ، كما تعنى فى المقابل البعد عن كل قول ، أو فعل أو عمل ينتج عنه شرا للفرد، أو للجماعة . وليس معنى هذا أن يتملص الإنسان من العبادة المفروضة عليه من صلاة ، وصيام، وزكاة وحج .. الخ بدعوى هذا المفهوم ولكن عليه أن يؤدى هذا وذاك لأن العبادة المفروضة التزام لله، وفرض له سبحانه ، وحق الله لا فصال فيه، أما ما بعد ذلك فهو القيام بواجبات الجماعة المسلمة إزاء فضل الله على من وهب استعداد فطريا فى أى جانب من جوانب الحياة، لأن الأخوة الإسلامية تقتضى أن يجود المسلم على غيرة من منح الله عليه . ومع ذلك فقد أخذ الله على نفسه عهدا على مكافأة من يقدم على فعل المكرمات طالما توخى بهذا الذى يقوم به وجه الله والإخلاص له ، والشكر على ما وهب.

٤ – الأمانة فيما وكل إليه . وليست الأمانة هى أداء ما اؤتمن عليه الإنسان من قول أو عمل فقط فى أدنى درجاتها، ولكن الأمانة المقصودة تعنى ممارسة الأمانة ، والقيام بها فى أعلى مراتبها . فأداء العمل بأمانة ، أمر مطلوب، ولكن الأكثر قبولا منه هو أن يتقن هذا العمل، ويجوده؛ ليصل به إلى درجة الكمال المميز، لأنه صادر من إنسان مميز عند الله وهو المؤمن . والأمانة اسم جنس تشمل كل أنواع الأمانات. فالعبادات، والمعاملات، وممارسة كل أنواع المهن والحرف أمانة . والتربية الإسلامية إذا أفرزت إنسانا بهذه الطريقة، ذلل الله له كل صعب، وفتح له مغاليق ما استعصى ، حتى إنه يمكن أن يقول للشئ كن فيكون.

٥ – العزة بالله ولله وفى الله . فالتربية الإسلامية لا بد أن يظهر أثرها فى سلوك المؤمن وبغير ذلك تصبح هذه التربية تربية لفظية، وقوة معطلة أساء استخدامها هذا الشخص، وضيع على نفسه فرصة خسر فيها من عدم الاعتصام بالله ونسب إلى هذا الدين من غير أن ينتفع به.

فالعزة بالله تعنى الإيمان المطلق بالعزيز الواحد ، وأن من استند إلى تلك العزة لا يمكن أن يشعر بالمذلة ، أو المهانة ، وحتى وإن وجه إليه ذلك من غيره فإنما هى مذلة الفانى للفانى ، والمهانة من المهين ، و العدم لا يصدر عنه إلا العدم ، وبالتالى فإن الاعتزاز بالله يطمس كل معالم الإهانة من غير الله.

والعزة لله هى فى جانب المؤمن عزة له ، لأنه أى المؤمن خليفة لله العزيز الذى لا يغلب . والخليفة للعزيز يأخذ عزة من استخلفه . والعزة فى الله تعنى أن يتمتع الإنسان بنعم الله وفضله من غير منة ولا إراقة لماء الوجه بل إن المولى سبحانه يطالب المؤمنين به ، ويأمرهم بأن يسيروا فى الأرض ويستخرجوا منها ما يشاؤون ليدركوا فضل الله على عبادة بشرط أن يحافظوا على أنفسهم ، لأنهم عباد الله ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف : ٣١). فالنهى عن الإسراف ليس خوفا على نعمه سبحانه أن تنفد ، وإنما النهى يتوخى سلامة المؤمن بدنيا ؛ حتى يعطيه فرصة العبادة لله . ومعروف أن البشر يعيرون بعضهم البعض كما يمنون عليهم - وهى ذميمة من جانب الخلق ، حميدة من جهة الخالق - لكن الله يسعد بخلقه حين يراهم مقبلين على نعمه ، راغبين فى الاستزادة منها .

٦ – ضبط النفس : المؤمن اليوم يتعرض لاختبارات عديدة فى كل لحظة . والحياة

المعاصرة حافلة بكل صنوف المثيرات ، والمنبهات ، وكل ما يساعد الإنسان على الإقبال على الدنيا ، والنهم منها ، بدرجة يمكن فى كثير من الأحيان أن يضعف هذا الإنسان أمام الحرام فيها : أكلا وشربا ، ومتعة ومستحدثات عصرية.

والمؤمن الحق مطالب بضبط النفس وأن يضع حدا لتلك المتعة ، الحلال منها بطبيعة الحال خصوصا إذا كانت إمكاناته المادية أقل من أن تصل إليها . وإذا كان المؤمن مطالبا بأن يكون لديه طموحات عديدة فإن هذه الطموحات تكاد تنحصر فى إثبات الذات . وإثبات الذات فى الجانب الإيمانى أولا ، ثم يلى ذلك إثبات الذات فى المجال الذى فرده الله به ، كان يكون متفردا فى العلم ، أو فى الأدب أو فى السياسة ، أو فى الاقتصاد ، أو فى الخلق ... الخ والمؤمن بهذا الاعتبار اصبح ضابطا لنفسه ، حاكما على شهواته ، مغلبا جانب روح الله فيه . أما إذا تملكت أهواؤه فيه ، وسيطرت شهواته عليه ، ومال إلى إشباع الجسد فإن جانب الحيوان فيه قد غلبه.

وقد كان أخوف ما يخافه رسول الله على أتباعه من بعده هو حب الدنيا بشكل يحطم توازن النفس ، ويضعف جانب الحب لله ، ولرسوله.

٧ – أن يعرف المؤمن حجمه الطبيعى ، فلا يدعى لنفسه صفة الوصاية على خلق الله ولا يتصور نفسه أن أصبح رسولا مسئولا عن رسالة ربه، إلا بالقدر الذى حدده المولى جل وعلا. ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل : ١٢٥) ولا يتصور - مهما أدى من عبادة - انه قد ضمن لنفسه الجنة " إنى لا آمن مكر الله ، ولو كانت إحدى رجلى فى الجنة "

ومعنى هذا أن يرسخ فى ذهن المؤمن أنه عبد مطيع لله تعالى ، يجتهد فى ذلك ما استطاع ، ويرجو الله أن يكون قدوة لغيره، ومؤشرا إلى جانب الهدى والرشاد ومفتاحا لينابيع الخير عند الله سبحانه.

٨ - المشاركة كل المشاركة في الحياة المعاصرة . فإذا كان الإسلام صالحا لكل زمان ومكان فإن المسلم يجب أن يكون حاضرا في كل زمان ومكان : بعلمه، وفكره، ومعلوماته، ثم بعقيدته. وغيابه عما يدور حوله، يعنى أن عضويته في الجماعة المسلمة كعضو فى الجسم الإنسانى انتهى العمل به، وسقط من حسابه . وإذا كان المسلم يعيش ماضيه بوجدانه، يستلهم منه الثقة، والاعتزاز بالنفس، وقوة اليقين ويعمل على إحياء الذاكرة الإسلامية، بصحة إسلامه – فإنه ينبغى عليه أن يكون أكثر معايشة لحاضره،

وتقمصا بمستقبله، يتفهم كليهما، ويعى ما حوله: فاحصا، محللا، ناقدا، ليخترق المستقبل، وهو على يقين من صحة ما يخطط له. فالآمال لا تتحقق إلا من خلال حلم مدروس، وعلم صحيح، ونفس دؤوبة على العمل، وإصرار على بلوغ الهدف، ولو طال الأمد.

إن الحيـــاة لزهر بيـــنه شـوكـا فحطم الشوك حتى تقطف الزهرا

لا تحسب المجد تمـرا أنـت آكلـه لن تبلغ المجد حتى تلعق الصـبرا